منهج الدكتور محمد حسين علي الصغير
في
موسوعة أهل البيت الحضارية

م.د. حسين سامي شيرعلي
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

اليوبيل الذهبي لتاسيس كلية الفقه

المقدمة

من دواعي الشكر على النعمة، والاعتراف بالفضل والاحسان لله تبارك وتعالى ان يمكننا (عز وجل) من الوفاء ببعض الدين الذي في رقابنا، على الذين أفنوا اعمارهم في خدمة العلم والفضيلة، لا سيما رواد ومؤسسي كلية الفقه العريقة تاريخا وحضارة، والاصيلة منهجا للفقه واصوله، والمتجددة عمقا فكريا من القرآن الكريم والحديث الشريف.

ولقد من الله علينا مرة أخرى بان وفقنا لان نفخر بكوننا تلامذة الشيخ الصغير والسيد البكاء والدكتور الحكيم والشيخ البهادلي، والاستاذ الظالمي وشاء تبارك وتعالى ان يقر بنا أعينهم، فيجعل منهم أرباب الفقه وأئمة القرآن، ويجعل منا الوارثون لما أسسوه من القيم والمبادئ والأخلاق والعلم، في ظل ظروف حالكة الظلمة وأوضاع تشرد تحت وطأتها خيرة علماء العصر وأساتيذ المعرفة.

ولعل من ابرز الرواد الذين جاهدوا للبقاء هو العلامة الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين الصغير الذي استحق منا أن نقبل أياديه مرتين لقيام تلك الأيادي البيضاء بخدمة القرآن الكريم عبر موسوعة الدراسات القرآنية وخدمة آل بيت النبوة من خلال موسوعة أهل البيت الحضارية التي تم اختيارها لتكون موضوعا لهذا البحث الذي كرس لاستقصاء ما بذله الدكتور الصغير من وسائل منهجية جديدة للوصول إلى حقائق تاريخية وعلمية مبتكرة كانت خافية عن أذهان الذين تعرضوا لدراسة تلك السيرة العطرة، وغائبة عن أفكار الكثير ممن اختار طريق الإبداع، فاستحال إبداعه إلى بدعة لا أساس لها من منطق أو دين.

وقد استقام منهج هذه الدراسة على خمسة مباحث، تناول الأول منها عوامل الابتكار في صياغة عنوانات الموسوعة الحضارية، وخصص المبحث الثاني لدراسة استخدام المنهج البلاغي في التدوين التاريخي، وجاء المبحث الثاني لاستقصاء ظواهر التحليل الدلالي في تشخيص واستجلاء الحقائق، وكرس المبحث الرابع لإيضاح المنهج النقدي في دراسة الدكتور الصغير، وكان المبحث الرابع لإيضاح المنهج النقدي في دراسة الدكتور الصغير، وكان المبحث الخامس والأخير، دراسة للتكامل الحضاري في ظل المنهج الشمولي للتدوين من خلال أربعة محاور أولهما: تتبع مسيرة الحركة العلمية، وثانيهما: تتبع مسيرة الحركة الثورية وثالثهما: تتبع مسيرة حركة المجتمع الإسلامي ورابعهما: تتبع مسار الاقتصاد الإسلامي، كل ذلك من خلال ما حفلت به عصور أئمة أهل البيت (ع) من ظواهر سياسية وثورية واجتماعية وعلمية واقتصادية.

سائلين المولى عز وجل أن يوفقنا لخدمة أهل بيت النبوة عليهم السلام والوفاء لأستاذنا الكبير العلامة الدكتور الصغير مد الله في عمره ووهبه من لدنه وافر الصحة وتمام العافية. انه سميع مجيب.

الباحث

د. حسين سامي شير علي

المبحث الأول: صياغة العنوانات وظاهرة التغليب الموضوعي:

ينصح المصنفون في اصول البحث العلمي الباحثين ان تكون صياغة العنوان المختار للبحث العلمي او الادبي بحيث يكون مطابقا للمحتوى ومعبرا عن كل البحث وليس جزءا منه ولا اكثر منه، وتتمتع مفرداته بصياغة رصينة تضفي على البحث نوعا من الجدة والرزانة، يقول الدكتور علي جواد الطاهر موضحا الغاية من دقة العنوان (... لأن هم الباحث من عنوانه الدلالة العلمية، وهو لهذا يضرب عن عنوانات المقالات الانشائية الصحفية التي تسعى الى الاثارة واجتذاب طالبي المتعة من عامة القراء)[1].

من جهة أخرى، نجد العديد من الباحثين يصدرون مؤلفاتهم بعنوانات طويلة قد تتجاوز مفرداتها عشرة كلمات او اكثر في محاولة منهم لتوضيح المضمون بشكل دقيق، كأن يحصرون فترة البحث تاريخيا بعدد من القرون او السنين او الايام او بصنفٍ من الشخصيات او بنوع من الحوادث والظروف أو بجملة من العلوم او بطائفة من الاغراض الشعرية الى غير ذلك من المناهج المألوفة حتى على صعيد الرسائل والاطاريح الجامعية كقولهم على سبيل المثال (منهج ابو جعفر الطبري وموارده التاريخية في كتابه تاريخ الرسل والملك، دراسة مقارنة مع مصنفات القرون الخمسة الاولى من تاريخ الاسلام)[2].

ومثل هذه العنوانات فأنها تحاول تشخيص ارضية البحث على نحو الدقة، وتسعى الى فرض حدود مشترطة ليس لها تجاوزها تتمثل في الزمان كتحديد فترة معينة أو في المكان محصورا ببلاد معينة او بشخصية بعينها أو بظاهرة واحدة او بنمط من السلوكيات كما هو الحال في الدراسات التربوية والنفسية. كالاطروحة الموسومة (القيم التربوية في فكر الامام الحسين (ع))[3] على سبيل المثال، والتي حصر فيها الباحث دراسته لفكر الامام الحسين فيما يتعلق بالقيم التربوية فقط دون القيم الثورية ومعاني التضحية والفداء التي تميزت اصلا في فكر الامام (ع)، وليس في ذلك لوم او عتاب على ذلك لانه نوه في عنوانه ان هذه الاطروحة تتناول هذه القضية بالذات دون تلك.

اما الدكتور الصغير في موسوعته الحضارية، فقد خرج مجدداً لنظرية او لظاهرة جديدة في اختيار او صياغة عنواناته لم يسبق اليها احد من قبل، واذا كان هناك من استخدم ذلك النمط من الكتاب، فانه لم يكن يرمي الى ما اراده الدكتور الصغير الذي نأى عن استعمال الزمان او المكان لتشخيص الظرف التاريخي او الجغرافي، فلم يحصر عنوانه في بلاد واحدة ولا بفترة زمنية مستعيضا عن ذلك كله بذكر اسم الامام الذي اشتهر به دون غيره كالصادق والباقر وزين العابدين والجواد.... وهي اسماء لأعلام لا ينصرف الذهن عند قراءتها الى غير المقصودين بها والفترات التي عاصروها والبلاد التي عاشوا فيها حيواتهم(ع). وهو ما يمثل الجزء الأول من العنوان أو ما يمكن اعتباره مبتدأ ينتظر خبره.

اما الجزء الثاني من العنوان الذي مثلناه في الخبر وهو الأكثر أهمية، والذي جهد الدكتور الصغير فيه للتعبير عما اراده من كل كتاب في موسوعته الحضارية حيث ابتعد فيه عن تسمية ظاهرة بعينها وجعل من الموضوع خارج حدود الظاهرة، اذ انه وصف الامام زين العابدين بالقائد والداعية والانسان، وهذه ليست ظاهرة، كما ان السيرة والقيادة في عنوانه لكتاب الامام علي (ع) لا يمكن وصفها بأنها ظواهر، كما ان صفة (عملاق الفكر الثوري) في جزء الامام الحسين (ع) ليست ظاهرة اختص بها الامام الحسين (ع)

فأهل البيت هم ثوار جميعا عبروا عن ثوراتهم بأساليب شتى وفق ما تتطلبه ظروفهم وطبيعة السلطات الحاكمة في عصورهم[4] وها هو استاذنا الدكتور يقول معززا لهذه الرؤية في مقدمته للامام الحسين معبرا عن وجود الثورة في عصر الامام الحسن (ع): (وقد أجاب كتابنا: الامام الحسن رائد التخطيط الرسالي، على شذرات منها – من الثورة- تتعلق بارهاصات الثورة والتمهيد لها وموقع الامام الحسن بن امير المؤمنين عليه السلام من الاحداث ودوره الرائد في التخطيط لمسارها الاولي واضطلاعه السري في الاعداد لبرنامجها المستقبلي) فهو اذن لا ينفي ان يكون الامام الحسن (ع) ايضا رائدا للفكر الثوري وعملاقا ايضا لهذا الفكر وبالتالي تخرج الثورة وفكرها عن كونها ظاهرة اختصت بعصر الامام الحسين (ع).

والتخطيط الرسالي في مصنف الامام الحسن (ع) ليست ظاهرة ايضا، فجميع المعصومين ابتداء بالرسول (ص) هم من المخططين الرساليين اصلاً، كما ان الامام الصادق (ع) لم يكن زعيما أوحدا في غير عصره، فالباقر (ع) كان زعيما للمدرسة في عصره، ومن قبله الامام زين العابدين ايضا كان زعيما لنفس المدرسة في عصره.. وهكذا فان كون الصادق (ع) زعيما للمدرسة في عصره ليس ظاهرة، واذا كانت ظاهرة فهي مختصة بعصره (ت148هـ) وهو مما لا نعتقد انه مبتغى الدكتور.

والامام الكاظم (ع) لم يكن بمفرده ضحية للارهاب السياسي، فمثل هذا الارهاب موجود في كل مكان وزمان منذ الازل وا لى اليوم، وقد عانى منه ائمة اهل البيت (ع) جميعا دون استثناء، والدكتور الصغير لا يجهل هذه الحقيقة كونه واحدا من ضحايا الارهاب ومن المناضلين ضده[5] ولذلك فنحن نفهم الامر بموجب هذا التحليل ان العنوانات التي وضعها الدكتور لموسوعته الحضارية لا تمثل ظواهر مستقلة. أو انه لم يكن يريد لها ان تكون ظواهر بالمعنى الأولي لها.

كما انها لنفس الاسباب لا يمكن ان تكون نمطا من السلوكيات فالامام الجواد (ع) لم يكن لوحده (معجزة السماء في الارض) لأن جميع المعصومين هم معجزات حقيقية الهية، والامام الباقر (ع) هو (مجدد الحضارية الاسلامية) في عصره وليس عصر غيره، والا فان الرسول الكريم (ص) ادعى ان يكون مجددا لهذه الحضارة ومنقذاً لها قبل ان يولد احد من المعصومين من ابناء علي (ع)، على ان المعصومين جميعا كانوا من الدعاة الى دين الله وتميزوا بالانسانية والتسامح وليس فقط الامام زين العابدين كما جاء في عنوانه (القائد، الداعية، الانسان)

وعلى ذلك فان ما اراده الدكتور الصغير من اختيار هذه العنوانات هو ليس حالة سلوكية تميز بها هؤلاء الناس، وانما طرح رؤية جديدة في بابها لصياغة عنوان معبر عن اكثر من حالة واسمى من اختصاصه بظاهرة وارفع من كونه يمثل سلوكا بل واكبر من كون العنوان يعني بشخصية بالمعنى الحرفي للفظة (شخصية)، ولذلك فقد حرص على ان يوحي لنا في كل عنوان من عنوانات الموسوعة بطائفة من المفاهيم التي لا يمكن تقسيمها الى معان متعددة ولا يمكن اجتزائها بعضاً عن بعض كونها تشكل تكاملا ظرفيا بما فيه من مكان وزمان وسمات ريادية او قيادية او تجديدية او حضارية او سياسية او اجتماعية او علمية وثقافية فجاء كل عنوان فيها يحمل في طياته: الغالب من السمات والسائد من الصفات والجامع للمفاهيم، وبذلك استطاع بفضل رؤيته الخاصة لشخصيات

اهل البيت (ع) ان يتخطى حدود الزمان والمكان والشخصية والظاهرة والسلوك كما هو السائد في كتابات ومصنفات الكثير ممن كتبوا في السيرة وفق منهج تقليدي سائد يبدأ بالولادة وينتهي بالوفاة ويستعرض في هذه الاثناء مجموعة الحوادث التي شغلت كل عصر من العصور، وباستعراض سريع لقائمة محتويات كل كتاب من كتب الموسوعة، سوف نجد دون ريب حالة من التجديد في طرح موضوعات متماسكة مع بعضها لا يكاد الباحث المنصف، وليس القارئ الصحفي ان يدرك انها تعبر عن وحدة متماسكة لا يمكن تخيل كل منها على انفراد.

وبذلك استطاع الدكتور الصغير ان يقدم لنا بناء منهجياً ايحائياً مغلباً لمجموعة من السمات والظروف والظواهر والسلوكيات التي تظافرت بمجموعها لصياغة عنوان يمكن اعتباره نموذجا حيويا متطورا لا سيما اذا ما قمنا بمراجعة ما استخدمه الذين سبقوه الى هذه الساحة من صياغات لموضوعاتهم امثال موسوعة الشيخ باقر شريف القرشي التي اخذت صداها الواسع من الشهرة والقبول في وقت صدورها الذي تفردت به، وموسوعة اعلام الهداية التي صدرت عن المجمع العالمي لاهل البيت (ع) في قم المقدسة والتي اخرجها الى النور جماعة من المؤلفين، حيث اقتصرت صياغة عنواناتها على اسم الامام المعصوم مضافا اليه ما اشتهر من كنى وصفات لا تمثل تجديدا حداثويا للصياغات المعهودة امثال الرسول خاتم الانبياء وعلي امير المؤمنين والحسن المجتبى وفاطمة سيدة النساء والحسن سيد الشهداء مما لا يشكل كسرا للجمود المألوف ولا خروجها عن اسلوب المؤرخين في التقليد.

المبحث الثاني
المنهج البلاغي في التدوين

قديما كان يؤخذ على ابن الاثير المؤرخ (ت 630هـ) في كتابه (التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية) الذي الفه لتخليد الاسرة الزنكية في الموصل ابتداء بسنة 477هـ والذي حاول فيه ان يوضح مآثر هذه الدولة ومحاسنها ومكانة رجالها في تاريخ الموصل[6]، كان يؤخذ عليه استخدامه للاسلوب الادبي في الوصف التاريخي متمثلا في التجويد اللغوي والسجع المفرط[7] ويرى الاستاذ روزنثال (ان الاسلوب البلاغي يتجلى فيه دائما الابتعاد عن الحقائق والدقة، وان استخدامه لم يساهم بشيء في تعميق الفهم التاريخي ولم ينتج شكلا جديدا من اشكال العرض التاريخي)[8]

ومن خلال دراستنا لكتاب ابن الاثير دراسة موضوعية، تبين لنا (ان هدفه في استخدامه لهذا النوع من الكتابة في تدوين التاريخ لم يتعد اضفاء الجاذبية في نظر القارئ المثقف مبتعدا عن اسلوب المحترفين ممن تميزت طريقة عرضه للأخبار بالجفاف والمبالغة في الموضوعية)[9].

وحديثا: كان لعميد الادب العربي الدكتور طه حسين باع طويل في مجال التدوين التاريخي باسلوب ادبي بلاغي جذاب، اذ (كتب في السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي ... فجاء بالجديد الذي لايمل، والمحدث الذي لا يجارى...) بحسب ما وصفه تلميذه الدكتور الصغير[10] واضاف(.. فلا أعلم بابا ادبيا الا دخله ولا سبيلا الى ذلك الا سلكه، فأخذ من كل فن بطرف، لم ينهج بذلك نهج القدماء في الاغراب، ولم يحفل بلغة الغربيين او المستغربين في الابهام والايهام، بل كان ما كتبه يمثل السهل الممتنع كما يقال فهو ذو اسلوب رائع وعبارة مشرقة،وبيان سمح جمع الى دقة المعاني دلالة الالفاظ والى حسن الالفاظ تخير المعاني، فجاء ما كتبه بعيدا عن الجفاف قريبا من الذائقة، يكتب للناس ما يفهمون ويبصرهم بما لا يعرفون باعثا على التغير ما وسعه التغيير داعيا الى التحرير ما استطاع)[11]

ومعاصرا: استطاع الدكتور الصغير في موسوعته الحضارية ان يكرس ما قيل في حقه من انه خليفة طه حسين في النثر من خلال محاكاته لاسلوب العميد الراحل في كل من كتبه: على هامش السيرة والشيخان وعلي وبنوه وعثمان ومرآة الاسلام وغيرها، مع خصوصية واضحة في انتقاء الالفاظ وطريقة متميزة في التعبير ومنهجا فريدا في الكتابة التاريخية يبتعد عن الاسراف في الموضوعية باستخدام الالفاظ الرسمية، ويقترب حثيثا من الفن البلاغي في صياغة عباراته التاريخية غير مبتعد عن نصوصها ولا مغرق في الالتزام بحرفيتها، ويمكن ان يتضح ذلك جليا من خلال عدة ملاحظات:

اولا: الاعداد النفسي لتقديم النص التارخي:

لم يكن الدكتور الصغير غافلا عن جفاف النص التاريخي غالبا لذلك حرص على استخدام وسائله البلاغية التي من شأنها ان تضفي على ذلك النص ذائقة متميزة تلقي في فكر القارئ نوعا من القبول والاستساغة وفي نفس الوقت تقدم خدمة ايضاحية جليلة لذلك النص بمختلف اتجاهاته وانواعه وتقدم القارئ استعدادا نفسيا وتحشيدا للاحاسيس

والنوازع باتجاه النص التارخيي وهي في العادة لا تخرج عن اطار الواقع التاريخي وامثلة هذا النهج كثيرة بين طيات الموسوعة، ومنها قوله:

((حينما استهان يزيد بحرمة الحسين (ع) ونكث ثناياه بمخصرته في مجلسه العام، انقضت عليه ابنة امير المؤمنين تستنكر فعله وتعري حكمه، وتستفظع عمله، وهي تقف على عاقبة امره وسوء منقلبه في تلك اللحظة التي امتلأ بها زهوا وفرحا وسرورا وتطاول فيها غطرسة وشماتة وغرورا، فجابهته بخطبتها الشهيرة المدوية، وقالت:

"الحمد لله رب العالمين وصلى الله رسوله وآله اجمعين.... الخطبة))[12].

فكانت الصورة البلاغية التي قدمها الدكتور عن حالة السيدة زينب (ع) والحال الذي كان عليه يزيد كفيلة بان تخلق جوا مشحونا في نفس القارئ يخلق من جميع حواسه اذاناً صاغية وانظاراً مشرئبة نحو الخطبة الجليلة.

ومثال آخر يوضح هذا النهج قول الدكتور فيما يخص علاقة الامام الصادق مع المنصور العباسي وهو يقدم ويعد لحوار دار بين الاثنين:

((ولم يكن هذا التوجه مجهول المعالم لدى المنصور، الا ان الزخم الجماهيري الحافل الذي يلتف حول الامام كان يثير المخاوف في نفسه مع علمه ان الامام لا ينازعه سلطانا، ولا يحفل بهرجة الحكم، وهو سائر بطريقه نحو الله، يهدي ويستهدي، ويهتدى بنور علمه،وهكذا كان شأن الائمة يبتعدون عن دوائر الظلم والجور، ويرفضون التعاون مع الحكومات الطاغية ويتقربون الى الله تعالى بنشر احكامه وتبليغ رسالته... ولقد عز على المنصور ان يكون الامام الصادق (ع) بهذا المستوى الرفيع من الوعي والثبات، وجرت بينهما المحاورة الاتية:

قال المنصور للامام: لم لا تخشانا كما يخشانا الناس... الحوار[13]... وفي مجال الوصايا نجد هذه التهيئة وذلك الاعداد في ابهى صورة واجلى معانيه، فيقول الدكتور وهو يقدم لحديث للامام الباقر (ع):

((والمال مال الله في ملكية الواقعية، الا انه خول به العباد من باب الاختصاص وامرهم بالصدقة ليلا ونهارا وحبب اليهم الانفاق سرا وجهارا ووعد المنفقين الخير العميم والمضاعفة في الاجر والاحسان، وهو وحده في الكفاية، ولكن الامر فيه ما هو اكثر من هذا وضعيا فتجد الامام عليه السلام يترصد الاثر الوضعي لذلك في الحياة الدنيا اضافة لما هو مدخر في الآخرة، فيقول: البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء))[14]

وفي مثال آخر يتحدث الدكتور عن التجربة العسكرية المترددة في عصر الامام الحسن (ع).

(وكان هذا الخطاب تفجيرا للموقف وكسرا لحالة التردد والجمود، ومع ذلك فما تحركت الهمم، ولا انتخت العزائم، وخرج عدي الى النخيلة وعسكر بها وحده، وكان هذا التخاذل من ابرز مؤشرات الخور والفشل، والامام (ع)) يقطر قلبه دما لقعود هذا الجمع عن حقه، وادراع عدوه مستلئما في باطله، وفي هذا الجو القاتل انتدب الناس ثلاثة من قواد الامام والغيظ يملأ قلوبهم والاسى يفت اعضادهم... فقرعوا الناس تأنيبا وتعنيفا وحملوهم على الخروج حملا وكأنما يساقون الى الموت، فقدر الامام (ع) لقواده موقفهم البطولي، وقال: (ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة)

وفي هذا النص، نرى الدكتور وهو يرسم صورة واقعية صارخة للظروف التي مر بها الامام الحسن (ع) مستوحاة من مجموعة نصوص تاريخية ولكن بلغة البلاغة وبألوان البيان لكي تكون مؤثرة في النفس وتجعل من القارئ على استعداد تام لاحتواء نص الامام وفهمه على وفق الصورة التي ارادها الصغير.

ثانيا: ترجمة النص التاريخي الى صورة فنية معبرة:

كثيرا ما يتصرف الباحثون فيما ينفعهم من النصوص اختصارا لمعناها او اختيارالزبدة مضمونها، او تبيانا لاهدافها او المراد منها، ثم يلحقون ذلك باشارة منهم في الهوامش بلفظة (بتصرف)، وهذا النهج مما هو معهود ومستحسن في اوساط البحث والباحثين...وان اشترطوا فيه الدقة في التعبير والحفاظ على اصالة المضمون.

وما وجدناه في موسوعة الصغير ظاهرة جديدة في التعبير عن النص التراثي، تلك هي (ترجمة النص) ان صح التعبير، الى لغة اخرى بحرفية لا تخل بمعناه ولا تتجاوز مراميه ولا تمس اصالته، بل تجعله اكثر تعبيرا مما اراد له كاتبه، وتضع بين يديه القدرة على التأثير من خلال استعماله لالفاظ مرادفة ولكنها اكثر حيوية وحركة في ادائها لاهداف النص التراثي بما ترسمه من صور فنية بالغة في تعبيرها، وكأنه يخلق من النصوص صورا تحكي مما لم يستطع مؤلف النص نفسه ان يعبر عنه بالكلمات.

وعلى سبيل المثال:

فهو يصور بعض السطور المقتضبة التي كتبها ابن عبد ربه الاندلسي في العقد الفريد وهي تشير الى تهتك الامويين[15] بقوله:

((وبدأت قصور الامويين تضج بموائد الغناء والرقص، وتحتفل بمظاهر المطربين والمخنثين رقة وصبابة وهياما.. وقد تطور هذا المظهر الصارخ الخارج عن الاسلام، فاحتضن موائد الخمر ومعالم الجنس، فعاد الشباب ضحية حياة مترفة بين زق وخمر، وباطية ومغنية، وجارية ومخنث، وبذلك تطورت نظرية جديدة لبعث الغناء واحياء مجالسه، فنشأ عليه شباب المسلمين، وترعرع جناه في احضان البلاط الاموي والولاء والفقهاء الرسميين هم في بحبوحة من الاسفاف في ظل معجم غنائي حافل باسماء طائفة كبيرة من المغنيين منهم:

سلم الخاسر، معبد، الغريض، ابن طنبوره، حكم الوادي، طويس هذا عدا المغنيات والمطربات، واما كلف الخلفاء بتلك المغنيات جنسا وغناءا واطرابا، فحسبك فيه حديث حبابة ويزيد بن عبد الملك، واكبابه على جثمانها –وقد ماتت- يترشفه ويشمه اياما حتى انتن))[16].

ومن خلال نص صاحب العقد الفريد الذي اقتصر فيه على احصاء بعض المغنيين في العصر الاموي، استطاع الدكتور ان يصور لنا حالة حقبة تاريخية مظلمة مرت في حياة المسلمين، وكان غير مرة قد اشبع هذه القضية بحثا وتقصيا))[17].

وتصويرا لبعض نصوص الشيخ المفيد في الارشاد[18] فيما يتعلق بصبر الامام الحسين (ع) على معاوية، يقول الدكتور:

((.... فقد جرد به الحسين الحقائق وعرض على معاوية اعماله مشكوفة وحذره مغبة اقواله التحذيرية واوقفه على مجمل جرائمه البشعة، لم يخف له جناحا ولم يرقب له سلطاناً فكان فصل الخطاب))[19]

وانظر اليه وهو يترجم نصا للطبري في تاريخه وهو يروي حادثةً امر فيها المأمون وزيره بشرب الخمرة في رمضان سنة 210هـ[20] فيقول:

((والأغرب من هذا ان يدعي المأمون التشيع تارة ويتأزر بمئزر الخلافة الشرعية تارة أخرى، وهو يتجاهر بالكبائر ويقترف المحرمات على رؤوس الاشهاد، ومن اطرفها استهتاراً بالدين وهتكاً لحرمة شهر رمضان لدى زواجه ببوران سنة عشر ومائتين من الهجرة، فقد افطر الخليفة هو والحسن بن سهل والعباس.... حتى اذا فرغوا من الافطار وغسلوا ايديهم فدعا المأمون بشراب فأتي بجام ذهب وصب فيه وشرب، ومد يده بجام فيه شراب الى الحسن، فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمز دينار بن عبد الحسن فقال له الحسن:

يا أمير المؤمنين؟ اشربه باذنك وأمرك؟

فقال له المأمون: لولا امري لم امدد يدي اليك، فأخذ الجام وشربه، فما عسى ان تقول في خليفة يأمر وزيره في رمضان بتناول الخمرة والوزير يتعفف عن ذلك؟))[21].

وكما هو واضح فان هناك عملية استنطاق للنص والتعبير عنه باسلوب ناطق بالحقيقة ومعبر عنها في اجلى صورة يمكن ان يرسمها خبير.

فالمؤرخ الطبري لم يكن من شأنه سوى النقل، دون رأي او تعليق، وهذا هو منهجه في التدوين، اذ يقول(.... وانا انما ادينا ذلك على نحو ما اودي الينا...)[22]، وكأنه يحث الباحثين الى التمحيص والتعليق والتحقيق والابانة حيث ان رواة الطبري كما وصفهم الاستاذ فلهوزن: (لا يفرقون بين الاخضر واليابس)[23]. ومن هنا كانت استجابة الدكتور الى هذه الدعوة من خلال تأطير الواقع والاحداث على وفق حقيقتها بواسطة دعمها بالأدلة والايضاحات التي عزف عنها ناقلها، وحسب المؤرخ صدق النقل وعلى الباحث الخبير ان يجليه ويفصح عن مراميه واهدافه.

وقد يضيق هذا البحث الصغير عن استقصاء امثلة كثير مبثوثة في الموسوعة الحضارية تحكي هذا النهج الذي اختطه الدكتور في تدوينه لها.

ثالثا: اختزال الوقائع والسنين والاحداث باسلوب أدبي مركز:

مما يتميز به الدكتور الصغير في هذا المجال، قدرته على استيعاب الزمان وتعدد الوقائع والاثار في خلاصة ادبية مركزة، لا تخل باحد العناصر ولا تغفل امرا مهما ولا يشعر القارئ مع ذلك الا بلذة التواصل مع الاحداث المتوالية، ومتعة التسلسل في الطرح باسلوب ادبي رفيع يجمع بين السهولة والجزالة والامتناع احيانا.

ولعل (هكذا رايتهم) هو خير شاهد على تكريس هذا المنهج ضمن ذلك الاطار، فقد نجح الدكتور الصغير فهي وبامتياز عال ان يستوعب سيرة ثمان في الاعلام الذين عاصرهم في 160 صفحة من القطع المتوسط بكل ما حفلت به هذه السيرة من انجاز على صعيد الجهاد والتجديد العلمي والريادة في العطاء والانسانية في العمل والنبوغ في الادب و اساليب البحث فضلا عن استقصاء السيرة الذاتية بطريقة لا نبالغ كثيرا اذا ما

قلنا انها تضاهي منهج الاستاذ المرحوم جعفر الخليلي في (هكذا عرفتهم)، وجاء كتابه (اساطين المرجعية العليا) مصداقا لهذا النهج، حيث ترجم فيه لسيرة وفكر خمسا من ابرز رجالات مرجعية النجف الاشرف في التاريخ الحديث.

وفي الموسوعة الحضارية، نجد الدكتور الصغير مدركا لما يصيب ا لقارئ من ملل جراء السرد والتاريخي الجاف، وتكرار ما توالى المؤرخين على ادراجه في كتبهم، واجترار ذات الروايات ونفس الاقوال والمآثر الامر الذي يجعل من الاعادة مظهرا ممجوجا ومستهلكا في ذائقة القارئ والكاتب على حد سواء.

ولذلك فقد كان حريصا اشد الحرص على تفادي الاغراق في الاستعراض التاريخي بوصفه مفصلا مهما من مفاصل التدوين في السيرة، فكان البديل الاوفر ذائقة والاكثر موضوعية والاوقع في الذهن والاجدى في البحث هو الاختزال غير المخل والاختصار غير الممل للحوادث والايام في اطار عرض تاريخي يتسم بالوصف العام ويتميز بدقة التعبير ويقدم خلاصة ادبية ذكية لاحداث كثيرة ومواقع جسام وسنوات متباعدة وايام متطاولة دون ان يشعر القارئ بالخلل او الملل وكأن شريطا سيميا ممنتجا يمر امام عينيه او صورة متكاملة الابعاد والالوان ترتسم في ذهنه مختزلة السنين وا لقرون المتوالية... وكل ذلك بكلمات تشكل سطورا قليلة ا ذا ما قيست بمجلدات عديدة قد عكف على تدوينها عشرات بل مئات من المؤرخين واصحاب الفن.

فانظر اليه وهو يختزل سياسة العباسيين والامويين و اهداف دولهم وسلوك خلفائهم في سطور معدودة، فيكتب:

((انتهى حكم الامويين بهزيمة مروان بن محمد وانتقم الله منهم انتقاما كبيرا واخذهم بذنوبهم اخذ عزيز مقتدر، فذهبت الصولة وتلاشى ذلك الطغيان وتهدمت دولة القيان والجواري والصبيان، ولكن البديل لم يكن بافضل منهم فقد تسلط شباب بني العباس على الرقاب، فكانوا اشد فتكا،وأسوأ أثراً واعق ملكا، وولغوا في الدماء ، وقتلوا على الظنة والشبهة، واستأصلوا شأفه الامويين ايما استئصال، فأبيدوا زرافات ووحدانا، حتى اذا بلغ الاسراف حد العسر والحرج، كان هناك من يريد ان يخفف من غلوائهم فما استطاع، وكان لعبد الله المحض وهو المكتوي بجمرة الامويين – موقف عد من المروءة بمكان .. وما علم عبد الله المحض ان مصيره ومصير ولديه: محمد وابراهيم على يد بني العباس مع كوكبة من ابناء الحسن عليه السلام....))[24]

وانظر اليه ايضا وهو يبين موقف رسول الامة (ص) من امير المؤمنين(ع) الذي دأبت المئات من التصنيفات على الافاضة فيه وبيان الادلة عليه والتماس البراهين على صحة رواياته، وهو يختزل كل ذلك التاريخ بكتابته هذه السطور:

((كان النبي (ص) يلمح تارة ويصرح أخرى بامامة علي (ع) يؤمره على الناس في القيادة، ولا يؤمر عليه احدا، ينوه بفضله ويعلي من شأنه، يخصه بالمنح العليا، علما وتفقها ومنزلة، ويشاركه في المهمات الصعبة فيجده اهلا لحملها، وهو الذي يأخذ بقسط كبير من وقته الثمين في افاضات يعلم قليلها، ويجهل كثيرها، يعلن عن بعضها، ويكتم بعضها الآخر، ولكن النبي قد يبدو مشفقا كل الاشفاق على ان يقول القول الفصل والوحي يلجئه الى الاعلان، ويضمن له السلامة مما يخشاه والتصريح منه اثر التصريح بأفضلية علي واهليته من قبل النبي (ص) يلاقي التأويل والتعليل من قبل علية القوم، ويقابل

بالايهام والابهام من جملة المهاجرين، يلتمسون بذلك حداثة السن حينا وحب بني عبد المطلب حينا آخر لتضييعه عن موضعه، وتمييعه عن مؤداه...))[25].

والنص الآتي يختزل فيه الدكتور تاريخ الخوارج منذ نشأتهم ويختصر خلاصة فكرهم مما أطالت المصادر والمعاجم وأفاضت في تبيانه، فيكتب:

((وسموا بذلك لأنهم خرجوا على إمام زمانهم، وهو أمير المؤمنين (ع) بعد مهزلة التحكيم التي لا رأي للإمام فيها، بل فرضت عليه فرضا وكان النصر قاب قوسين أو أدنى في حرب صفين، انشق عليه أصحابه هؤلاء، وهم أهل العبادة والجباه السود، فكانوا فتنة للآخرين، وتعقبهم أمير المؤمنين في معركة النهروان، ولكن فلولهم بقيت وتفرعنت في عصر الإمام الباقر فعادوا عصابات مسلحة حينا وحركات منظمة عسكريا حينا آخر. ولكن الظاهرة الفاضحة لهم: القتل والسبي والتكفير دون وازع ديني أو عقلي، واستمرت حروبهم حتى نهاية العصر الأموي، واصل القول عندهم –كلاميا- أن الخلافة لا ينبغي أن تقتصر على قريش- بل يتولاها من يقوم بالأمر ولو كان عبدا حبشيا، وعدوا بلاد المسلمين دار حرب فحاربوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا...))[26].

والمتطلع إلى هذا ا لنص يدرك أن الدكتور قد تناول فيه: أصل تسميتهم، قضية التحكيم وبطلانها، موقف الإمام منهم، ظروف معركة صفين، انشقاقهم، تدينهم وفتنة الناس في هذا التدين، معركة النهروان، آثارها، تطورهم في عصر الإمام الباقر، حركاتهم العسكرية، خلاصة آرائهم، اصل فكرهم الكلامي... وكل هذه الا حداث والمفاهيم من الصعوبة بمكان اختزالها في هذه السطور رغم حجم الاحداث والافكار التي ذكرتها التواريخ وكتب العقائد، مما نستطيع معه ان نعترف بالقدرة التي يتمتع بها أستاذنا على هذا الاحتواء الادبي المركز لحوادث التاريخ مهما كبُر حجمها واستطالت بها السنين او القرون.

وانظر اليه وهو يصف شخصية الخليفة المنصور وفترة حكمه ومميزات عصره وسياسته مع العلويين والهاشميين وعلاقته تاريخيا بعصر الامام الكاظم (ع) في هذه السطور:

(وكان الامام موسى بن جعفر قد قضى اكثر من عشرين عاما في خلافة المنصور التي امتدت بين عام 136هـ حتى عام 158هـ وهي فترة ليست بالقصيرة، اذ افنى زهرة شبابه في حياة هذا الحاكم وهو يسفك الدماء بغير الحق، ويستبيح الذمام ابتداء من القضاء على الحسنيين وانتهاء بسم الامام الصادق (ع) وما رافق ذلك من المظالم الهائلة والارهاب الجماعي، مما ذهب ضحيته الاف المسلمين الرساليين، مضافا الى القضاء على شباب الهاشميين وشيوخهم قتلا وتشريدا واعتقالا، كما حدث بذلك التاريخ)[27]

المبحث الثالث: المنهج التحليلي في تشخيص الحقائق:

لعل من ابرز المهام التي يصطلح بها المؤرخ العصري بعد ان انتهى عصر النصوص والمتون هو عملية الاستجلاء والاستظهار والاستنطاق والاستيضاح لتلك النصوص التي هي بامس الحاجة واشد الضرورة الى قراءة دلالية موضوعية جديدة، تنظر الى الواقع بعين الظروف المحيطة به، والى الحقيقة بعين التجرد وعدم الانفعال والى التاريخ بعين الانصاف والعدالة متحرية للاسباب الداعية وللنتائج العملية وللتداعيات

المستقبلية، من خلال دراسة النص التراثي تحليليا، وهو ما دعا اليه اصحاب النصوص القديمة وارباب التواريخ الحافلة لا سيما وانهم –كما يقول ابن خلدون- (لم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل وطرق التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل)[28].

وبالتالي فان مهمة الباحث المؤرخ المعاصر هي ليست في ترديد النصوص واجترار المتون مما حدب القدماء على تصنيفه وجمعه وتبويبه حوليا وموضوعيا وفق مناهج مختلفة، وانما في تحليل هذا النصوص وتفكيك تلك المتون باتجاه الوقوف على اهدافها وما تريد ان تقوله في نتائجها مما قد يغير او يستبدل جملة من الحقائق المألوفة الى اوهام وبالعكس.

ومما لم نتوقعه قبل صدور الموسوعة الحضارية ان يكون مؤلفها وهو المتخصص في البلاغة القرآنية والنقد الادبي. ان يكون على هذا المستوى الرائد والرفيع من الوعي التاريخي الذي يفتقر اليه –وللأسف الشديد – كثير من المؤرخين الرواد واساطين الفن.

لقد استطاع الدكتور الصغير من خلال هذه الموسوعة ان يقدم لنا منهجا فريدا في التحليل الموضوعي لنصوص التاريخ، ومن خلال هذا المنهج ابطل الكثير من الحقائق واوضح العديد من الاشكالات وتجاوز ذلك الى اصدار قرارات خطيرة من نوعها لم يجرؤ حتى اصحاب الصناعة عن الحديث فيها، فهو يلقي بالحجة تلو الاخرى، والدليل اثر الدليل مستخدما وسائل شتى للاقناع والتأكيد من العقل والنقل على صحة ما ذهب اليه، وعلى حقيقة ما استنتجه مستدلا بالتداعيات التي تتلو الاحداث والوقائع، وهو الى ذلك يفصح عن وجهة نظره بتلك النصوص قائلا:((... ان التاريخ وهو يمثل عادة الوجه الرسمي للا حداث قد تجنى كثيرا فاغفل جملة من الاحداث الفريدة وغطى على كثير من البطولات النادرة، ومع هذا وذاك فقد برزت الحقيقة سافرة في طائفة من وقائعها الفذة، وان تعجل المؤرخون في ظل الدول الحاكمة كتمان أحاديث المجد الرائدة....))[29]

وامثلة المنهج التحليلي كثيرة جدا في اجزاء الموسوعة ومتعددة الاغراض والمناحي والاتجاهات، لذا ارتأينا انتخاب بعضها ضمن محاور لاتمثل كل تلك الاغراض وانما تعطي صورة واضحة تعبر عن مستوى الرقي ومقدار الجهد الذي بذله المؤلف لتكريس هذا النهج في موسوعته حتى عاد سمة ظاهرة واسلوباً غالباً.

اولا: تحليل المواقف والقرارات:

يقول الدكتور في حديثه عن موقف الامويين من مدرسة الامام الباقر (ع) محللا ((على أن الحاكمين قد نظروا الى هذا السيل المتدافع من رواد العلم وطلاب المعرفة عند الامام ، وهم منه بين محذورين، بيد أنهم – فيما يبدو- قد اغمضوا عليه حذرا من الاندفاعات الدموية التي سرعان ما تنفجر لابسط الا سباب، فكان اختيار اهون الضررين، هو الفرار، ولا يسمى ما حدث اعتدالا بحدود، بل هو الخوف من الادهى بحدود لأن الامر اذا لم يتجاوز العلم الى سواه فهو هين لا يحذر، الا ان التخوف من سواه هو الا كثر ترصدا))[30].

وبذلك فسر الدكتور اعتدال الامويين في معاملتهم للامام الرضا فرارا من الادهى فكان تحليله صورة واقعية تحاكي فعلا سياسة الامويين في ذلك الظرف.

ثانيا: تحليل الخطابات واللوائح:

يعلق الدكتور محلا لديباجة رسالة الحقوق للامام زين العابدين محللا لبعض حيثياتها:

((ان انطلاق الامام الانساني في هذه الحقوق الشاملة لمشكلة الانسان في حياته وآخرته، والمستوعبة لقضاياه المصيرية في النفس والجوارح والافعال والدولة والنظام العام والقرابة والارحام والاجتماع والمال والقضاء والاخلاق. اطروحة انسانية لحقوق الانسان من قبل ان يولد دعاة حقوق الانسان بعشرات القرون والاجيال، وهي بعد شذرات اشارية لما عليه القرآن الكريم في تشريعه والسنة النبوية في احكامها وسيرة اهل البيت في سننها، تعبر عن مدى التفكير الا صيل لدى خلو الميدان من القيادة الرائدة، وتنفذ مقتضيات الانسان الجديدة لدى الخواء الروحي والاجتماعي والسياسي الذي تعاني منه المجتمعات المتقوقعة على الذات والمصلحة المحورية الانطوائية، لذا فرسالة الحقوق التي فجرها فكر الامام وثيقة تاريخية مهمة في سبيل اذكاء الروح النضالية لدى الانسان من جهة، ووثيقة انسانية من جهة اخرى تعبر عن الوعي الرسالي الذي يحمله فكر الامام للاجيال المتحضرة، ووثيقة اجتماعية تحقق العدالة والمروءة والمساواة من جهة ثالثة، وفق هذا كله، فهي طرح للتعايش الروحي مع حقيقة الحياة في مرافقها كافة، وهي المنهج البديل عن القوانين الوضعية التي تجنح في كثير من الاحيان الى زاوية خاصة تحقق مصالح فئوية))[31].

ثالثا: تحليل الاهداف والرؤى:

يقدم الدكتور تصورا تحليلياً لرؤية الامام الصادق (ع) واهدافه من مسألة الحكم مفسرا للعديد من النصوص الواردة في هذا المجال، فيكتب:

((ليس الحكم مرادا بحد ذاته عند الامام، بل هو وسيلة لاقامة دين الله في الارض،واشاعة العدل الاجتماعي، وبناء الأمة على اسس سليمة، من الوعي والادراك ، فهو رؤية محورية تدور حول قطب مركزي لايتعداه، وهو وسيلة لاهداف مشروعة لا غاية لتحقيق شهوات السلطان، والامام في هذا يصدر عن مضمون رسالي قد لا ينسجم مع اغلبية الاراء، مع العلم ان مسيرة الامام القيادية شاهدة على هذا المنحى ليس غير، وهي حاشدة بالمرايا الصادقة التي تعكس اشعتها هذه الافكار، فيما كابد الامام شتى الضغوط في سبيل تثبيت الرأي الصريح في هذا الاضطراب غير المحدود، وكان هذا الضغط لا يقتصر على سلاطين عصره، بل حتى من قبل ابناء عمه الحسنيين، فترى الامام يرمى بالحسد تارة، وبالتخاذل تارة اخرى وبالاعتدال سواهما، حتى اضطر الى اللمح ا لغيبي باخبار عبد الله المحض ان الامر لا يعدو بني العباس... وكان الامام حريصا على تجنب كل المبادرات التي تريد زجه في حركات محكوم عليها بالفشل مسبقا، فقد غادر المدينة المنورة لدى اعلان ثورة محمد ذو النفس الزكية، وعاد اليها بعد هدوء العاصفة...))[32].

وعلى سبيل المثال ايضا فهو يحلل أهداف الامويين من وراء حادثة كربلاء فيقول: ((وهدف النظام الاموي من هذا كله تبديد الهالة القدسية التي تحيط بالحسين وآل بيته،

وافهام الثائرين الذين لم يتح لهم ان يشاركوا في ثورة كربلاء: ان اجراءات السلطة في حماية نفسها لا تتوقف عند حد ولا تحترم أي قداسة واي مقدس واي عرف ديني او اجتماعي))[33]

رابعا: تحليل النتائج:

وهو جهد حرص المؤلف على اعطائه اهمية استثنائية من التحليل وصولا الى تداعياته، فيكتب مثلا محللا لنتائج صلح الحسن (ع) مع معاوية:

((وهكذا كان فقد حارب الامام الحسن عليه السلام معاوية بسلمه، وحقق في صلحه ما لا يحقق الفاتحون في القتال، مما كانت معه صحوة الشعوب الاسلامية بعامة والشعب العراقي بخاصة من الغفوة الراقدة فكانت الحقيقة وضاءة كاشفة وكانت النتائجة باهرة، فما استمرأ معاوية بالحكم لاله وبنيه الا ليتجرع الغصص في الدنيا، ولعذاب الآخرة اشد واخزى))[34].

خامسا: تحليل الاحداث:

وبلغة المؤرخ الخبير كان يحلل الاحداث ويتوقع تداعياتها، وعلى سبيل المثال فهو يكتب محللا لبعض استحضارات الامام الرضا (ع)، فيما يخص ولده الامام الجواد (ع):

((وكان من دقة الامام الرضا عليه السلام وتفكيره الموضوعي ان لم يصطحب معه ولده الامام الجواد (ع) الى مرو، بل ابقاه في المدينة المنورة حفاظا عليه من النظام الطائش الذي قد يقدم على تصفيته جسديا لو حصل لابيه الامر كما هو المتوقع، وكان هذا الملحظ الدقيق مؤشرا سياسيا رفيعا في تمرس الامام الرضا (ع) في الا حداث ومعرفته النوعية بمؤامرات البلاط العباسي الذي لا يتورع عن شيء.

هذا من وجه احترازي خالص، ومن وجه آخر ايجابي كان بقاء الامام محمد الجواد (ع) وهو في عمر الورود، يشكل منعطفا تاريخيا في حياة الامام فهو لم يتجاوز الخامسة من عمره الشريف الا ان التفاف الشيعة كان مكثفا حوله، باعتباره ظاهرة جديدة في حياة الامة نظرا لصغره، ومع هذا فان الاقبال كان عليه منقطع النظير من اوليائه واهل بيته والهاشميين))[35]

ويكتب أيضا محللا للظروف والمناخات التي زامنت ثورة الحسين صاحب فخ في عصر موسى الهادي العباسي: ((ويبدو ان عصره المفاجأة كان متوافرا في الثورة فقد اضطر الحكم الحسين الى استعجالها، فما التحق به احد من القصبات والاقاليم))

ولم يتهيأ لها مناخ اعلامي او دعائي، بل ولم يلتف أهل المدينة حولها بالشكل المطلوب، ولم يسبق لها تمهيد سري تجتمع حوله الرجال وأعداء الحكم، ويبدو ان الرصد الامني لأجهزة النظام كان مسؤولا عن كثير من هذه التداعيات، وكان احضار الطالبيين امام المقصورة كل يوم يعني فرض الرقابة الصارمة من كل الوجوه) [36]

سادسا: الرؤية الدلالية للسلوك السياسي:

ومن امثلته في الموسوعة، يتسائل الدكتور عن مسيرة الرؤوس من كربلاء الى الكوفة، ومن ثم يحاول باسلوب تحليلي عميق ان يجيب عن مجموعة تساؤلات كانت تثير استغراب الكثير من المؤرخين ممن لا يتمتعون بالبعد السياسي لتلك الظاهرة، فيكتب:

((أترى الامر ساذجا يساق لمجرد التشفي لوحده؟ ام هناك حافظا وداعيا اكبر من هذا الظاهر الانتقامي؟ ولا نستطيع هذا القول ولا يكفي تبريره لهذا الابتداع المرعب، ان الذي نعتقده ان وراء هذا الاجراء الصارم هدفا سياسيا مبرمجا يوحي بخطة رهيبة احكم تخطيطها تختفي وراء ذلك الظاهر الطائش المقيت، فالنظام يحاول جاهدا ان يقضي على كل ظواهر المعارضة في كل اصنافها واشكالها معلنة وخفية، ولا يتاح له هذا الا بإتباع أبشع الطرق الموصلة الى هذا الهدف، وليس هناك بعد قتل الحسين وآله وصحبه، وانتشار ذلك في الامصار خبرا ورواية، من تمثيل هذه الحقيقة صارخة باستعراض رؤسو ابرز القتلى في مشاهد مثيرة تستدعي رؤيتها احباط كل الاحتمالات في التحرك ضد النظام، وتهبط كل المعنويات الى درجة الصفر، حتى لتصاب بالشلل الكلي الذي لا يؤمل معه أي دبيب في الحركة وبذلك يضمن النظام استقراره بعد ان مني بهزة عنيفة اقامته واقعدته واستنفر لها كل امكاناته الهائلة من اجل القضاء عليها، وهي ثورة الحسين بما تحمل بين جوانحها من بعد ثوري قد عرض النظام للخطر الكبير الذي قد يقدر له الاطاحة بالنظام لو ترك وشأنه))[37].

سابعا: التحليل النفسي للشخصية التاريخية:

نجح الدكتور الصغير في ترسيم الابعاد النفسية لشخصيات عديدة باستخدام التراكم السلوكي والميول السياسية والتوجهات الدينية لتلك الشخوص، من تحليل وتبرير الكثير من الاحداث التاريخية وهو يشابه في اسلوبه هذا الى حد كبير عمل المحقق الجنائي ووسائله للوصول الى الواقع، ومن امثلة هذا النهج في الموسوعة، تحقيقه الدقيق لحادثة مقتل عمر بن الخطاب، فيكتب في احد الفصول:

((والمغيرة مشهور بالزنا والغدر، فما يمنعه ان يغدر بعمر عن طريق غلامه، وجفينة غلام سعد بن ابي وقاص أعجمي وهو من منفذي الجريمة وسعد كان سيء الرأي بعمر، وهو نجل الأمويين من جهة الام، فما المانع ان يستطيل حياة عمر ليتسلم الامويين الحكم؛ ولا اشك باندفاع جماعة من قريش وراء الحادث كأبي سفيان للغرض نفسه، وان يكون هذا العمل بقيادة كعب الأحبار الذي بدا ناصحا متنبئا شفيقا في سلاح ذي حدين: الظهور بمظهر العالم بالغيب والافادة لدى ما يلي عمر من الخلفاء، وقد كان الامر كذلك، فادناه عثمان، واحتل الصدارة في ديوانه، والمنزلة الرفيعة لدى الامويين كائدا ودساسا))[38].

ويكتب محللا لشخصية المنصور في اكثر من ملحظ:

((لم يكن المنصور حازما كما صوره مدونوا التأريخ ولم يكن داهية كما يصفه رواة الاحداث، بل كان من جبابرة الارض الذين سفكوا الدماء وانتهكوا الحرمات، ولم يكن ليتعامل بمنظور ديني على الاطلاق، وانما هو الملك الدنيوي العقيم، فهو لا يتورع عن

ارتكاب افظع الجرائم والموبقات ازاء تثبيت اركان مملكته، ولا ادل على ذلك ما اقترفه من قتل الحسينيين تحت كل حجر ومدر، وفي تتبع اثار المعارضين ابادة وسجونا وطوامير، حتى طفح الاناء بما فيه شدة وقسوة وتنكيلا))[39].

المبحث الرابع: المنهج النقدي لاراء القدماء والمتأخرين:

ليس للباحث الخبير، عندما يقرأ موسوعة الصغير، باناة ودقة، الا ان يحكم بانها دراسة دلالية تحليلية نقدية الى حد بعيد، وعدم وضوء الهدف النقدي جليا يمكن ان نفسر اختفائه وراء الاسلوب البلاغي في العرض والمناقشة والتحليل. والقدرة التي يتمتع بها المؤلف على النقد التي اختزلها بالاشارت العديدة الى ان التاريخ الذي بين ايدينا قد كتب في ظل الاشراف السلطوي، ووصفه بأنه (رسمياً) كون الاحداث التي سيقت فيه كانت تتماشى مع ميول ورغبات السلطات الحاكمة. وبذلك فهو قد وضعنا امما مقدمة نقدية عامة كتب موسوعته على اساسها، وبناء على ذلك فهو لم يختر من النصوص في استشهاداته واستدلالاته الا ما كان مطمئنا الى صحته وواقعيته بعيدا عن التعصب في النقل عن طائفة دون أخرى شأنه في ذلك شأن المنصفين في أحكامهم والموضوعيين في معالجاتهم، فهو ينقل عن الطبري، وابن الاثير، والخطيب البغدادي وابن خلكان وغيرهم الى جانب نقله عن الطوسي والصدوق والكليني، ويستعين باحمد امين والشرقاوي وطه حسين ويوسف خليف مثلما يستند الى نصوص باقر شريف القرشي ومحمد جواد فضل الله ومحمد حسين آل ياسين، لا فرق عنده الا في قوة العبارة وما تؤديه من الدعم العلمي والتأريخي لما يراه صائبا وواقعيا، ومع ذلك فهو قد ينحى باللائمة على الجميع دون استثناء اذا ما وجد في رأيهم خلافا لما يعتقده، وكل ذلك لا يتم في منهجه الا بالدليل النقلي او العقلي، وحيث نراه ناقدا لاصحاب التأليف، فاننا نجده ناقدا ولائما لبعض شخوص التاريخ من سياسيين وحكام وفقهاء وغيرهم، وعلى ذلك سوف نقسم المطلب الى قسمين:

اولا: نقد الشخصية التاريخية والعلمية:

ومثال ذلك انتقاده لموقف شريح القاضي عند اخباره لمذحج بعدم مقتل صاحبهم هانئ بن عروة مما ادى الى انسحابهم عن قصر ابن زياد، بقوله:

((وكان على شريح ان يكون ذا ورع ودين او ذا مروءة وا نسانية، فلا يكون ظهيرا للظالمين، وعليه ان يتدخل في مسعى حميد لانقاذ هانئ، وهو يراه في حال من يقتل لا محالة، وكان على عشيرة هانئ ان تكون ذا عقلية ودراية، فلا تثق باعوان الظلمة ولاتستخذي باقوال المشبوهين من ذوي الماضي المهزوز والتاريخ الاسود....))[40].

وانتقاده لموقف ابي بكر من الامام علي عليه السلام، بقوله:

((وليت ابا بكر (رض) اذ اطال النظر في وجه علي عليه السلام قد اطال النظر الى قلب علي من وراء حجاب رقيق، فاستشعر ذلك الالم الدفين في ذلك القلب الكبير، وليته سبر أغوار هذا الجرح العميق فغير وبدل وجامل وحاور وناظر عسى ان ينتزع هذا الحزن من ذلك القلب، ولكنه اصر على تجاهل هذه الحقيقة الصارخة، وغض النظر عن هذا الملحظ الدقيق طيلة خلافته، فبقي الشجا في نفس علي، وغص علي بريق

الاسى، ينظرون في وجهه ولا يرتسمون خطاه، ويطيلون النظر اليه ولا يستمعون لأنينه، وهو في عزلة يرى تراثه نهبا وكفائته لا يفاد منها، وكأنه متاع رخيص في زوايا البيت الحافل باغلى النفائس....))[41]

ونحن نلاحظ ان نقده مبني على أساس متين من الحجة الدامغة والمنطق السليم، فليس التجني من منهجه، ولا المحاباة من اخلاقه، ولا الجفوة في القول من أساليبه.

ثانيا: دلالة النقد التاريخي المعاصر

استعان مؤلف الموسوعة بقائمة من المراجع ا لحديثة لمؤلفين تحدثوا عن سيرة اهل البيت (ع) وفق منهاج تجزيئية، وننحن وان كنا نسجل تحفظنا على هذه المناهج من ناحية عدم اكتمال بنيتها الفكرية التي لا يمكن ان تتحقق الا في ظل دراسة الكل المتكامل او الجزء الذي لا يتجزأ، أي ان من يبتغي دراسة سيرة ائمة اهل البيت (ع) يجب ان يدرسها على اساس الهدف الواحد والا كانت موئلا للمؤاخذات والطعون كونها (هذه الدراسات) لا تحقق الهدف المشترك الذي ناضل هؤلاء الائمة من اجل تحقيقه.

وهو ما المح السيد الشهيد محمد باقرالصدر (قده) بقوله:

((الاتجاه الذي يتناول حياة كل امام ويدرس تاريخه على اساس النظرة التجزيئية. أي ينظر الى الائمة ككل مترابط، ويدرس هذا الكل ويكشف ملامحه العامة، واهدافه المشتركة ومزاجه الاصيل ويتفهم الترابط بين خطواته وبالتالي الدور الذي مارسه الائمة جميعا في الحياة الاسلامية))[42].

الى ان يقول: (حين نحاول اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للائمة ككل، فسوف تزول كل تلك الخلافات والتناقضات لانها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة وانما اختلف التعبير عنها وفقا لاختلاف الظروف والملابسات التي مرت بالرسالة في عهد امام اخر، ويمكننا عن طريق دراسة الائمة على اساس النظرة الكلية ان نخرج بنتائج اضخم من مجموعة النتائج التي تتمخض عنها الدراسات التجزيئية لاننا سوف نكتشف الترابط بين اعمالهم... فصلح الامام الحسن (ع)) ونهضة الامام الحسين استهدفا رغم التباين السلوكي فضح وتعرية الانحراف الاموي عن مبادئ الاسلام واذا ما تم فهم ذلك السلوك على هذه الصورة الكلية ذات الاطار الواحد فسوف يرتفع التباين والتناقض الشكلي في سلوكياتهم عليهم السلام))[43].

ولا اجد احدا ممن استفاد من طروحاتهم الدكتور الصغير قد تبنى هذه الرؤية في كتابته لتاريخ الائمة، وحتى الاستاذ باقر شريف القرشي صاحب الموسوعة الجليلة التي من يتطلع فيها لا يرى الاتجاه الترابطي والنظرة الكلية متوافران في منهجه بشكل ملحوظ، وان كان الرجل مدركا لانجازات ذلك المنهج وتلك الرؤية.

اما في موسوعة الدكتور الصغير، فاننا وجدنا تكريسا حقيقيا وتكامليا وشموليا، رغم اننا لا ندري ان كان مطلعا قبل ذلك على فكرة الشهيد الصدر او ان هذا النهج كان بناء على رؤية منهجية مستقلة؛ ومهما يكن الامر فسوف نتحدث عن ذلك في مبحث لاحق.

ونجد ان الدكتور وجه الى بعض هؤلاء المؤلفين نقدا موضوعيا حول تحليلاتهم للاحداث والمواقف وما استفادوه من دلالات ضمن طريقة رفيعة المستوى لم تكن لتخدش اراء الاخرين ولا اساءة الى افكارهم. وانما جاءت لتعبر عن استدراك او تعليق او

تصحيح وهم بأساليب لا تشعر القارئ بانه نقد حقيقي وخاصة ما يتعلق ببعض اساتذة الدكتور الصغير، امثال الدكتور طه حسين، والدكتور يوسف خليف، وللاطلاع على ما هية ذلك نقدم استعراضا سريعا لبعض ما جاء في طيات الموسوعة الحضارية:

أ: نقده للدكتور احمد أمين في كتابه فجر الاسلام الذي قال:

((والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من اراد هدم الاسلام لعداوة او حقد ومن كان يريد ان يدخل تعاليم ابائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية، ومن كان يريد استغلال بلاده والخروج على مملكته؛ كل هؤلاء كانوا يتخذون حب اهل البيت شعارا يضعون وراءه ما شاءوا من اهوائهم)) [44]

ويجيب الدكتور الصغير على اتهامات احمد امين في نص مركز اثرنا نقله برمته لكي تتضح معالم منهجه النقدي في مجال الدفاع عن العقيدة فيكتب:

((والذي يقرأ هذا النص المتهافت قد يدور في خلده ان موجات بشرية من اليهود والنصارى. وطوائف من الهنود والزرادشتية قد دخلوا في التشيع وانخرطوا في سلكه والتجأوا باسم حب اهل البيت للاعلان عن الالحاد والزندقة تحت غطاء من التشيع، لترسيخ تعاليم ابائهم في الاذهان نتيجة حقد دفين على الاسلام.

وهذا الزعم الرخيص يكذبه الاستقراء التاريخي اذ لم ينضو آنذاك تحت لواء التشيع الا القبائل العربية الاصيلة. ولم يسجل لنا التاريخ أي افراد من هؤلاء فضلا عن الجماعات قد انتحلوا التشيع شعارا لهم في حركاتهم. بل حدثنا التاريخ ان العرب الاقحاح من اولياء اهل البيت بقيادة الامام الصادق (ع) هم الذين رصدوا تحرك الزنادقة. وسدوا عليهم المنافذ التي يتسربون من خلالها الى المجتمع المسلم بشتى الطرق والاساليب.

وكان الامام الصادق يقف بالمرصاد لاولئك المنحرفين، ويدفع بتلامذته المقربين امثال: هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم وسواهم، للتصدي والايقاع بشبهات اهل البدع.

ومن المتسالم عليه علميا ان الدكتور احمد امين يصدر في ارائه عن تعصب اعمى يغلب عليه في كل تصريحاته الفجة، وليس التعصب معيارا للبحث الموضوعي في شيء، ولقد سخر منه الامام محمد الحسين كاشف الغطاء لدى مناقشته اراءه الغريبة ضد التشيع وأهل البيت وأفحمه بالحجة والبرهان، وكان ذلك في النجف الأشرف عند زيارته لها،فوعده بتصحيح ارائه ولكنه عاد الى مصر ولم يفعل ذلك))[45]

ب: مداخلته مع الدكتور طه حسين في كتاب الفتنه الكبرى بقوله:

((وقد وهم استاذنا العظيم الدكتور طه حسين بقوله: ومهما يكن من شيء فلم يعرض الحسن نفسه على الناس، ولم يتعرض لبيعتهم، وانما دعا الناس الى هذه البيعة قيس بن سعد بن عبادة، فلبى الناس واستجابوا، واخرج الحسن فاجلس للبيعة.

وليس هنالك دليل نصي او تاريخي على هذا القول، فلم يكره الامام الحسن (ع) على البيعة، وهو حقه الطبيعي المفروض تكوينيا، وانما تعرض لها مجاهرا في معرض بيان خصائصه الكبرى في أول خطاب له بعد دفن ابيه مباشرة، وكان الحسن في المسجد وتمت البيعة له، ولم يخرج اليها اخراجا، وكان أول الداعين اليها في كل النصوص التاريخية الموثوقة هو عبد الله بن عباس حبر الامة، وليس قيس بن سعد...))[46].

وفي موضوع آخر يقول مداخلا على الدكتور طه حسين ايضا:

((ولا دليل على ما رآه الدكتور طه حسين بقوله: وقد مكث الحسن بعد البيعة شهرين أو قريبا من شهرين لا يذكر الحرب، ولا يظهر لها استعدادا حتى الح عليه قيس بن سعد وعبد الله بن عباس وكتب اليه عبيد الله بن عباس من مكة يحرضه على الحرب

ويلح عليه في ان ينهض فيما كان ينهض فيه ابوه ويستأنف الصغير مستدلا: فقد اعد الامام الحسن (ع) نفسه للحرب إعدادا وفكّر بها جادا وهيأ اسبابها ومالها وسلاحها. وعين قوادها وسار اليها بنفسه ولكن الاقدار داهمته بظروفها الصعبة ومضاعفاتها الخطيرة فهو يريد ان يحمل الناس على منهج ابيه وقد ابتعد الناس عن هذا المنهج. فلم يكره احدا على الحرب ولم يعلن الجبروت في الارض...))[47]

جـ: مؤاخذاته على استاذه الدكتور يوسف خليف رحمه الله في كتابه (حياة الشعر في الكوفة) بقوله:

((واني لأستغرب حقا من أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله ان يرى الامام الحسن عليه السلام يؤثر العافية مع الذلة، على القتل مع العزة – ولو تأمل في هذا الموضوع جيدا وهو العالم الحصيف لادرك بما لا يقبل الشك ان الامام الحسن عليه السلام يؤثر الصلح مع العزة على الاستسلام مع الذلة، فكل الدلائل تشير الى ان الامام الحسن كان محكوما من قبل مجتمعه المتناقض، لا حاكما يستطيع التصرف بحرية عسكرية او ارادية، انه المنطق الديني الرسالي، والامام يتصرف في ضوءه، وقليل اتباع هذا المنطق، والناس لها المظاهر والامام ينظر الى حقائق الاشياء))[48]

د- تصحيحه لما ذهب اليه الا ستاذ محمد جواد فضل الله في كتابه (الامام الصادق) بانه:

قدر لا يتجاوز المعقول بالقول بان الالهام والكشف احد مصادر علم الا مام التي يستمد منها بعناية من الله ولطف)[49]

يقول الدكتور: (ان ذلك لا ينطبق على الائمة وحدهم وإنما هو عام في رحاب الفلاسفة والنوابع وذوي الاشراق في النفس والروح. وقد يتواجد عند العرفانيين، في الاحساس والادراك، وهذا وحده لا ينبغي ان ينضم الى موارد علم الامام (ع) لأنه نبع من مصادر قد تخطئ وقد تصيب، فهي من المتحول الذي ليس له قاعدة، وعلم الامام من الثابت الذي لا يتحول ومن النوع الذي يتسم بالشفافية الصادقة اليت لا تتكدر، وما سوى هذا فهو تابع للحالات المتقلبة في ذاتية الانسان....))[50].

هـ:وقفاته النقدية على بعض آراء الشيخ الاستاذ باقر شريف القرشي ومنها:

مسالة زواج الامام الجواد (ع) من ابنة المأمون، حيث يميل القرشي ان المأمون حاول الوقوف من خلال هذه الزيجة على نشاط الامام (ع) والاحاطة باتجاهات السياسة ومعرفة العناصر الموالية له والقائلة بامامته، وذلك عن طريق ابنته التي ستكون زوجة له، ويرى القرشي ايضا ان من اهم الاسباب واكثرها خطورة ان المأمون حاول من هذه المصاهرة جر الامام الى ميادين اللهو واللعب ليهدم بذلك صرح الامام الذي تدين به الشيعة، والذي كان من اهم بنوده عصمة الامام وامتناعه من اقتراف أي ذنب عمدا كان ام سهوا. وكان من الطبيعي ان يفشل في ذلك، فان الامام (ع) لم يتجاوب معه بأي شكل من الاشكال)[51].

بينما يرى الدكتور الصغير ان (هذا الافتراض ليس من السهل على المأمون الجرأه عليه. او التفكير به على الاطلاق فيما نعتقد، فالمأمون اعلم الناس بورع الامام وتقواه،

وهو الخبير الستراتيجي بما عليه شأن الأئمة المعصومين، وان احتال على الامام بكل حيلة فلم يمكنه فيه شيء...)[52].

و: موافقته للشيخ محمد حسن آل ياسين:

من خلال اقتباسه لمجموعة من النصوص التي وردت في كتابه (الامام جعفر الصادق) على سبيل الاستشهاد والايضاح والتأكيد لما يتميز به اسلوب الشيخ آل ياسين بقوة العبارة ودقة التحقيق وعمق التحليل[53].

وعلى سبيل المثال فالدكتور ينقل عنه فيما يتعلق بمواقف الامام الصادق قائلا:

(يقول الا ستاذ محمد حسن آل ياسين معللا موقف الامام الصادق قائلا: ولئن كانت الثورة في رأي الامام الصادق ليست غاية في حد ذاتها، ولن يتحقق اثرها المؤمل بمجرد اعلان الخروج على النظام الفاسد، وانما هي وسيلة اضطرارية من وسائل الاصلاح والتغيير وملجأ أخير لا يصح اللجوء اليه الا عندما يتأكد الضمان الكامل بتوفر جميع المتطلبات الاساسية المؤدية في المدى المباشر وغير المباشر الى هدم ذلك النظام))[54]

المبحث الخامس: التكامل الحضاري في ظل المنهج الشمولي للتدوين:

ليس من السهل على أي مؤرخ ان يجمع في تاريخه استقراء لاصناف متباينة من الاحداث مهما بلغ احترافه لهذا الفن ومهما كان متقنا لصنعته، فالتاريخ السياسي شيء، وللتاريخ الأدبي منحى آخر ولتاريخ العلم والعلماء نوع خاص بأهله، وتاريخ الرجال امر لا يمت بصلة الى هذه ولا الى تلك ، وتاريخ المدن والبلدان مما يطلق عليه الجغرافية التاريخية صنف مستقل بنفسه،ولتاريخ الاقتصاد في الاسلام مصنفات خاصة، كما ان للمقاتل والوفيات كتب معروفة.

ولذلك كان كل من تاريخ الطبري (ت310هـ) للأمم او الرسل والملوك، والكامل لابن الأثير الجزري (ت630هـ) وتاريخ الاربلي (ت717هـ) المسمى(خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سير الملوك) ، وكتاب (الوزراء) و (رسوم دار الخلافة) للهلال بن المحسن الصابي (ت448هـ) وغيرها مما لا يعد ولا يحصى: مصنفات متخصصة في التاريخ السياسي.

وكان كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (ت356هـ) كتابا في التاريخ الادبي، ومثله كتاب البطليوسي (ت512هـ) (الاقتضاب في شرح ادب الكتاب) وكذا تحفه الوزراء المنسوب الى الثعالبي (ت429هـ) ومحاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الاصبهاني (ت 502هـ) فضلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت276هـ) وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وغيرها فهي جميعا مما يعد تاريخا ادبيا.

ومن امثلة ما الف في تاريخ العلم بشكل استثنائي، مفاتيح العلوم للخوارزمي (ت387هـ) وكان فهرست الشيخ الطوسي (ت460هـ) تاريخا للعلم من خلال تتبعه لما الف من كتب في مختلف علوم الشريعة وسبقه الى ذلك ابن النديم (ت حوالي 380هـ) في فهرسه الشامل لتاريخ كل ما الف من العلوم الى نهاية حياته.

والكتابة في علم الرجال حرفة لا يقدر عليها الا أهل الفن والخبرة الذين انتجوا رجال النجاشي والطوسي والكشي وابن الغضائري وابن داوود والبرقي وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وتواريخ البخاري الكبير والاوسط والصغير.

ونحو تخصص اكثر دقة في ابواب المعرفة التاريخية كان هناك ما يسمى بالتاريخ المحلي والتاريخي الحولي والتاريخ الموضوعي، والتاريخ الجغرافي امثال المسالك والممالك للاصطخري (ت340هـ) وصورة الارض لابن حوقل (ت376هـ) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (ت300هـ) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت626هـ) وغيرها مما يفوق الحصر.

وامثلة ما كتب في تاريخ الاقتصاد الاسلامي، مصنفات الخراج لكل من قدامة بن جعفر الكاتب (ت 328هـ) ويحيى بن آدم (ت203هـ) وابو يوسف صاحب ابي حنيفة (ت182هـ) وابن رجب الحنبلي (ت795هـ)، فضلا عن كتب الاموال امثال كتاب القاسم بن سلام (ت224هـ) والمؤلفات المختصة بالتاريخ التجاري امثال كتاب (التبصر بالتجارة) للجاحظ (ت255هـ) و(احكام السوق) ليحيى بن عمر الكناني (ت289هـ) ومصنفات الحسبة الكثيرة، وما يتعلق بالتاريخ الاداري امثال كتب الا حكام السلطانية للماوردي (450هـ) وابي يعلى الحنبلي (ت 521هـ) و (قانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي)(ت542هـ) و(قوانين الدواوين) لابن مماتي (ت606هـ).

وبعد ذلك: فليس للمؤرخ ان يدعي انه استطاع ان يجمع كل هذه الانواع من التواريخ سياسية وعلمية وجغرافية ورجالية واقتصادية وتجارية وادبية واجتماعية ومحلية في آن واحد وبرؤية شاملة وتزامن دقيق، وقد جرى تاريخ التأليف على هذا المنوال لدى المحدثون فألف قسم في النظم الاسلامية والفت طائفة اخرى في التاريخ السياسي، وتخصصت شريحة من المثقفين بتاريخ الادب العربي ونبغت قلة للكتابة في تاريخ العلوم امثال د.عمر فروخ والسيد حسن الصدر. وصدرت العديد من المؤلفات في تاريخ الاقتصاد الاسلامي امثال كتاب الخراج لاستاذنا الدكتور حمدان عبد المجيد الكبيسي، ولم نجد من حاول الجمع بين هذه التخصصات الا الدكتور المرحوم جواد علي في موسوعته (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) وهي موسوعة طغى على مباحثها الاسلوب العلمي المتجرد وهي لا تتسم بالدلالية والاستنتاج.

ولعلنا لا نبالغ ولا نبتعد كثيرا عن الحقيقة اذا ما اعترفنا بفخر بأن الدكتور الصغير قد نجح الى ابعد الحدود وفق منهج دلالي رصين في الوصول الى حالة الجمع المركز لخيوط تلك الاتجاهات المتنافرة في التدوين التاريخي الاسلامي، فكانت الاحداث تتوالى تباعا ترافقها نظراته التحليلية وخبرته النقدية، وتلحظها بعين السياسي المحنك، مترصدا معها تطور العلوم حقبة بحقبة وعصر بعصر وظاهرة بظاهرة، غير متغافل عن انفعالات الرأي العام الاجتماعي، ولا متناسٍ للرأي والرأي الآخر كلما استطاع الى ذلك سبيلا، فضلا عن اهتمامه الدؤوب بوصف الأمكنة والبقاع والاوضاع الاقتصادية المحيطة بالاحداث وهو يرسم صورة و اقعية متكاملة للحدث التاريخي بكل ما يحمله من ظروف مهما تنوعت او اختلفت اغراضها ومراميها، ولعل ذلك لا يتضح الا بالاستعراض الدقيق لهذا المنهج:

اولا: تتبع مسيرة الحركة العلمية:

تعد دراسة تاريخ العلوم واحدة من فروع العلم الهامة والتي جرى التركيز عليها بشكل ملفت في القرون الاخيرة، وقد تولد عن الاهتمام بدراسة التاريخ العلمي نزعة خاصة بنت لنفسها اركانا فلسفية وصارت تقرأ الافكار والفرضيات قراءة تاريخية. وهي قراءة تختلف من حيث طبيعتها وبنيتها ومصادرها.

وتؤثر قراءة التاريخ العلمي في فهم الباحث لنظريات وافكار هذا العلم كما تحدد سير تطور هذه النظريات ومراحلها، وبالتالي المؤثرات الفكرية التي ولدت هذا التوجيه او ذاك، وهي مع كل ذلك قادرة على شرح العلاقات والارتباطات القائمة بين الافكار المختلفة داخل هذا العلم نفسه وبقية العلوم الاخرى من ناحية ثانية.

وبحسب تتبعنا للعديد من المصادر السابقة. فاننا لم نجد من سبق الدكتور الصغير الى الاهتمام بهذه الظاهرة تتبعا واستقراء وتحليلا دلاليا، مؤرخا من خلال ذلك لتطور حركة الفكر التشريعي التي تبناها ائمة اهل البيت (ع)، وحملوها الى الاجيال اللاحقة حتى وصلت الينا تراثا تشريعيا ثرا.

وكان تتبع الدكتور مبنيا على اساس تخصصي نوعي، فلم يتحدث عن تطور عام او يؤرخ لتطور شامل وانما خص كل مرحلة تاريخية بما شاع ابانها، وخص في اثناء ذلك كل علم من العلوم باستقصاء دقيق لمباحثه متزامنا مع الحقبة التي شهدها من التاريخ و لكي نوضح ابعاد هذا النهج يمكن تقسيم جهوده بحسب العلوم:

1- الدراسات القرآنية:

تحدث الدكتور عن القيادة في ظل القرآن الكريم مؤسساً للامامة على انها نص لا اختيار فيه ولا شورى معه، وكما نص القرآن ورسول الله (ص) على امامة علي امير المؤمنين، فقد نص أمير المؤمنين على إمامة ولده الاكبر الامام الحسن بن علي (ع)...[55].

وقد ناقش منزلة القرآن الكريم بمنهج تحليلي من خلال دراسته للصحيفة السجادية[56].

وفي بحث موسع تناول الدكتور دراسة فقه القرآن متعرضا لآيات الاحكام فيه ضمن مرحلة اطلق عليها بأنها (مرحلة البناء لأركان فقه اهل البيت عليهم السلام) مقدما لنماذج من هذه الايات وتفسيراتها مما يخص الطهارة المائية والترابية وتحريم الخمرة وتوابعها وقضايا الميراث والصلاة في بعض احكامها وبعض من احكام النساء[57].

وفي مجال آخر استوعب الدكتور لقصص القرآن من خلال دراسته لخصائصها متعرضا لتحليل قصة يوسف وقصة موسى وقصة جالوت وقصة ادريس والاسراء والمعراج ونماذج من القصة القصيرة الواردة في القرآن الكريم[58].

ودرس ايضا الولاية الالهية في القرآن من خلال نضال الامام الباقر والامام الصادق في سبيلها. وموقع اهل البيت منها[59]، مناقشا لظاهرة فريدة من نوعها الا وهي معنى المعنى في القرآن الكريم[60] متناولا لبحث دلالة الالفاظ في القرآن الكريم وفق

ظاهرتين حسية باعتبار الالفاظ اصواتا،ومعنوية باعتبار الالفاظ رموزا، متعرضا لست وسبعون مثالا تجسد قدرة الامام الباقر (ع) على استلهام دلالة الالفاظ القرآنية ليفجر منها زخما لغويا استيعابيا[61].

ولم يغفل الدكتور الصغير، وهو يناقش كل هذه الاتجاهات ان يتعرض لتاريخ التفسير العام، فيؤكد لنا ان أمير المؤمنين عليه السلام قد فتح باب التفسير بعد رسول الله (ص) قائلا:

(وكان امير المؤمنين قد أسس مدرسة أهل البيت (ع) في التفسير، فكان المسلمون يأخذون عنه هذا العلم ويعتبرون تفسيره من الثوابت التي لا تتحول، يصدر عما صدر عنه رسول الله (ص) مترسما خطواته، وسائرا بركاب بركاته، حتى عرف بين الصحابة أجمعين أنه أعلمهم بالقرآن، وأحوطهم على كتاب الله، وقد نهض بعبئ الامامة بعده ابناؤه المعصومون، فكانوا حملة القرآن وتراجمة الكتاب العظيم حتى انتهى امر ذلك الى سيدنا محمد بن علي الباقر عليه السلام فأبان ما اشتمل عليه القرآن من حكم وامثال، وعبر وعظات، ودلائل ومفاهيم، فركبت له المفاوز، وطويت المنازل، وضربت اباط الابل من شرق الارض وغربها، فكان المرجع الا مثل والمفسر الاعظم)[62].

2- الحديث الشريف:

اولى مؤلف الموسوعة علم الحديث عناية خاصة متعرضا لعدد من المباحث مناقشا لجملة من المشكلات ا مثال قضية المنع من التدوين تحت عنوان (في القرن الاول الهجري). ومسألة العزل السياسي لاهل البيت (ع) من خلال عدم تدوين ما صح عنهم، موضحاً لأهمية حديث السلسلة الذهبية، مؤرخا للعناية برجال الحديث، ولحاكمية صحة الاسناد[63] متوسعا في الحديث عن دور ائمة اهل البيت في الاشراف المباشر على عملية تدوين الحديث الشريف مستعرضا في اثناء ذلك لنصوص مجاميع من مروياتهم[64] ولطائفة من الالفاظ الجارية مجرى الامثال في تراثهم[65] وهو جهد يستحق الثناء والتبجيل حيث لم يسبق اليه احد في هذا المضمار الذي يظهر القدرة الفائقة للائمة (ع) في صياغة العبارة الرصينة التي تتعلق بالحكمة والموعظة الى جانب التعبير البلاغي الرشيد، وهذا الصنف من الاقوال يمثل قاعدة استفاد منها الباحثون في نقد العشرات بل المئات من النصوص المنسوبة الى الائمة والواردة في كتب الحديث – وابطال هذه النسبة على اساس التقويم الادبي والبلاغي لتلك النصوص[66].

3- الفقه الاسلامي واصوله:

حرص الدكتور الصغير على تشخيص الابعاد التاريخية والعلمية لنشأة مدرسة اهل البيت (ع) في مجال الفقه واصوله، من خلال دراسته للمناخات السياسية والاجتماعية التي رافقت نشوء هذه المدرسة ، وترجمته لشخوصها وروادها. ومواقف السلطات الحاكمة والفقهاء الرسميون منها[67] كما درس بشكل اكثر تفصيلا وعناية معالم القواعد الفقهية لاعتبار انها ظاهرة حضارية متطورة يلجأ اليها المجتهدون في اختزال مسافات الحكم الشرعي عند عدم توافر النص الخاص على جزئية ما، مفهرسا وموضحاً لاكثر

من خمسون قاعدة[68] كما ناقش تأسيس علم اصول الفقه، معتبراً أن مصدر هذا العلم هو ائمة اهل البيت (ع) ، مستندا إلى ما ورد عن الإمامين الباقر والصادق (ع) القول:

(انما علينا ان نلقي الأصول ، وعليكم ان تفرعوا) معلقا: (وهي بادرة الى قيام المصطلح بتسميته (الأصول) وهي دعوة أيضا إلى أعمال الفكر وتجديد النظر وهي رفض للجمود ومخلفاته)[69] كما اثبت الدكتور ان مسيرة هذا العلم العظيم مدينة بسيرورتها الى الدور القيادي البارز الذي اولاه ائمة التحقيق العلمي ابتداء من عصر الشيخ المؤسس محمد بن محمد النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ) والسيد المرتضى علم الهدى (ت336هـ) والشيخ الاكبر ابو جعفر الطوسي (ت460هـ). ومن سار في ركابهم، فلهم الفضل الاول في ارساء قواعد هذا الفن بعيدة عن الفهم المعقد، والمنهج الفلسفي الاحتجاجي المزود بالاف التعليلات و الاشكاليات في عرض جزئياته التي اتسعت فيما بعد)[70].

كما انه تعقب تلك المسيرة وصولا الى عصر الامام الجواد(ع)، مصورا لطبيعة العصر العلمي من خلال نشاط الامام بمناظرة ومحاورة فقهاء عصره[71].

4- علم الكلام:

اهتم الدكتور بشكل استثنائي بدراسة الحياة العقلية وتطوراتها على مدى عصور ائمة اهل البيت (ع)، من واقع اثرها الكبير في توجيه النزاعات المستمرة بين الفرق الكلامية، فتحدث عن تاريخ الخوارج والمرجئة والمعتزلة وموقف ائمة اهل البيت منها فكرياً وعقائديا[72].

وفي ظل ذلك المناخ العقلي، تحدث الدكتور عن الثورة المضادة التي صاحبت ذلك المناخ، مناقشا لظاهرة الغلو والغلاة وظاهرة الالحاد والزندقة[73] التي ظهرت في ايام الامام الصادق(ع)، ومؤرخا ومحللا لاضطراب ذلك المناخ من خلال تعدد الاتجاهات العقائدية والانشقاق الداخلي في فرق الشيعة من خلال درساته لمواقف الامام موسى بن جعفر في خضم تلك التيارات الكلامية[74]، متابعا لتطورها وازدهارها في عصر الامام الجواد من خلال دراسته لقضايا التوحيد الالهي، ومناظرة الامام لمتكلمي عصره[75]

5- العلوم التجريبية:

واستكمالا لتغطية علمية شاملة، قدم الدكتور الصغير إستعراضا مركزا قيما لمجموعة من العلوم الصرفة او التجريبية التي مثلت نبوغا ذاتيا في فكر الامام الصادق (ع)، وخاض في تفصيلات علمية دقيقة قد لا يتسنى للمتخصصين في علوم الشريعة ان يتفهموا مباحثها بسهولة، فقد ارخ لنشأة علم الكيمياء على يد الامام الصادق (ع) مناقشاً لاشكالية ذلك السبق الذي اثاره بعض الباحثين، مفصلا القول في العديد من الاكتشافات العلمية في هذا الميدان[76].

وحاول ان يقدم نظريات الامام الصادق في علم الفيزياء، فكان دوره دور الناقل الامين والمعلق لا المنظر –بحسب تعبيره- و المنظم لجزء من ابعادها في ضوء ما استخرجه المتخصصون واكتشفه رواد هذا العلم والمبرمجون له. والنظر في اجماعهم ان الامام الصادق سبق الى نظريات فيزيائية دقيقه يسرها بين يدي الباحثين، امثال اراؤه في

نشأة الكون ومسائل قانون الاجزاء الصلبة، ونظريته في حركة الموجودات، ورأيه في نسبية الزمان والمكان، ونظريته الخاصة بالضوء. واشعة الليزر، ورؤيته في خلق الانسان والطبيعة الارضية، ونظريته الطريفة في الوجود والوجود المضاد[77].

ونجح الى حد كبير في استعراض علم الطب بشرائح كثيرة عند الامام الصادق (ع) مشيرا الى بعض الملامح العامة في الكشف والابتكار التي سبق اليها الامام متحديا قصور اطباء عصره عن ادراك كثير من الظواهر الطبية المعمقة، حيث تعرض الى ما اسماه (اكتشاف المجهول) وهو اكتشاف الحقائق الطبية وتكوين الخلق البشري وتشريح الاعضاء وغوصه في علم الفسلجة قبل هذا التطور الهائل المعاصر، ، وتحدث عن الامراض الباطنية كالحمى ومرض القلب وأمراض المعدة وتوابعها وأمراض الصدر سيما الربو وسوى ذلك.[78].

ثم تحدث الدكتور عن طب الاطفال، والامراض النفسية، والطب الوقائي عند الامام الصادق (ع) بتركيز غير مخل مختزلا الكثير من الحقائق التي هي من الوفرة في الكمية والمادة العلمية بحيث لا يتسع لها منهجه في التركيز والاختزال[79].

ثانيا: تتبع مسار الحركة الثورية واساليب الطغاة:

يمثل هذا المنحى في الموسوعة الحضارية شريحة كبيرة ومهيمنة على روحها وأهدافها بشكل واضح ، ولا غزو فقد كتب التاريخ الاسلامي على اساسها فكانت عنصرا رئيسا من عناصر الاكتمال الموضوعي. ومنظارا كبيرا للعديد من الوقائع والاحداث الجسام، ولأجل بناء البحث في ظاهرة الثورة فقد قسم الدكتور الصغير تلك الثورات على اساس اختلاف المنظور التاريخي في تقويمها وتحليلها وتباين النظرة الموضوعية الى عطائها سلبا وايجابا فكانت بحسب تقسيمه لها بحسب اهدافها ونوازعها:

1- استهداف الامويين رغبة في السلطان ولهاثا وراء الحكم دون مبدئية محددة تتعاطف مع الاسلام او تتجاوب مع احاديث المسلمين.

2- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة. ويمثل هذا الاتجاه عموما الخوارج في ثوراتهم الصغيرة والكبيرة.

3- الاتجاه الثوري للتخلص من الظلم والاستبداد[80].

على ان المقصود بمسار الحركة الثورية في منهج الدكتور الصغير هو هذا النوع الاخير الذي قاتل ضد الظلم والاستبداد والفساد الديني والاخلاقي والاداري.

والكتابة في تاريخ هذا الجانب من الجوانب الثورية قليل لدى المعاصرين اذا ما استثنينا رسالة الدكتورة سميرة مختار الليثي الموسومة (جهاد الشيعة) والتي قامت بطبعها احدى دور النشر الايرانية مع تحفظها على العديد من الملاحظات التي لا تنسجم ومبادئ الشيعة بين مباحثها، الامر الذي يدل على ندرة التأليف وقلة التصنيف بسبب الكثير من الظروف الامنية والطائفية والسياسية.

وحسب الظاهر ان كتابة هذه الموسوعة في العراق وفي ظل الوضع السياسي الارهابي كانت تحديا واضحا وفاضحا للسلطات الحاكمة وتهديدا لايدلوجياتها الطائفية، وضع المؤلف على المحك مع تلك السلطات، ولعل القارئ الجديدة الذي يجهل تاريخ تدوين بعض اجزاء الموسوعة ليظن دون تردد انها كتبت حديثا بعد سقوط صدام وقيام

دولة الاحتلال والحرية الفكرية، ولا يشك للحظة انها دونت في ظل الرقابة الشديدة والمنع الحازم لطبع وانتشار مثل هذه الكتب التي كان مجرد قراءتها جريمة لا تغفر دولة الارهاب لمرتكبها ابدا ومهما كانت منزلته العلمية.

نهج الدكتور الصغير في تتبعه لمسار الحركات الثورية ما يأتي:

أ- دراسة الظروف والمناخات العامة المحيطة بكل ثورة تمهيدا لطرح وقائعها على ساحة البحث، لتتضح الصورة الواقعية للاحداث فلا تكون مجردة عن محيطها ولا منفصلة عن ظروفها، بحيث تكون وقائعها إلعوبة بيد قليلي الخبرة في التحليل، والمغرضين واصحاب الاهواء الذين يحاولون تفسير التاريخ على وفق مزاجاتهم وميولهم، فيستخدمون انصاف النصوص، واضعفها موضوعية لتحقيق مآربهم في الاساءة الى التراث الثوري الاسلامي، ويمكن تلمس دراسة الدكتور الصغير في هذا الملحظ وفق هذا التقسيم:

1- المناخ السياسي والعمق الثوري

ولعله من المناخات المهمة في فهم حقيقة ما يحيط بكل ثورة قامت ضد الظلم بحسب نظرية الفعل ورد الفعل أو المؤثر ، فهو على سبيل المثال يتحدث عن معاناة الامام الباقر في ظل الاضطهاد السياسي وسلاطين الارهاب الدموي كأثر ناتج عن احداث الطف[81].

ولعلنا نجد بشكل اكثر اضطلاعا ان كتاب الامام الحسين (ع) صورة جلية لتقصي هذا المناخ في جميع فصوله وابعاده، ودون شك فانه اجاب على مجموعة من الاسئلة الملحة ووضع جوابا لسؤال اكثر اهمية وهو (هل كان المناخ السياسي ملائما لتفجير ثورة كربلاء)[82].

وهو يعزو ثورة الحسين صاحب فخ وانتفاضة يحيى بن عبد الله المحض الى (سوء الادارة العباسية سياسيا واجتماعيا ودينيا، حياة البذخ والسرف والتبذير، واجراءات القمع الدموي، والعمل بسنن الجبارين، كل ذلك قد اثار مشاعر الاحرار والاخيار ضد النظام العباسي)[83]

ومن خلال مواقف الامام الصادق (ع) يرسم لنا الدكتور المناخ السياسي لثورة الشهيد زيد وثورة محمد ذو النفس الزكية وثورة ابراهيم احمر العينين.

فيقول: (ولم يجد الامام في رؤيته الاستراتيجية للمناخ الثوري مسوغا عقليا او شروعيا لدعم هذا المناخ او الاقتراب منه لانه تضحية بلا قضية، لان القضية اذا صودرت وابتلعت فهي لا شيء، الا انه لم يقدح برجال الكفاح المسلح ولا وقف ضدهم، وان نصح بعضهم – الحسنيين- بالاقلاع عن هذا التفكير...)[84].

2- المناخ الاجتماعي:

وهو من الاثار المهمة في قيام العديد ن الثورات، وقد أولاه الدكتور عناية استثنائية في العديد من تحليلاته، وجعل منه منهجا لا بد منه لدراسة مسوغات كل ثورة قامت من أجل التغيير، وهو أمر استبعده من الدراسة اغلب الذين كتبوا في تاريخ الثورات.

ومن امثلة هذه العناية في الموسوعة دراسته لظاهرة العصبية القبلية والاثار الاجتماعية لحياة العبث والاسراف[85] وتحليله لطبيعة المجتمع الكوفي المتناقض، وأثر

هذه الطبيعة في تحديد مواقف الامام الحسن (ع)[86] وهو على سبيل المثال لا الحصر يجعل من الاضطهاد السياسي والاجتماعي للموالي سببا لانخراطهم في ثورة المختار، ومن ثم يعزو قوة المختار الى تلك المشاركة، فيقول:

((... وقد ادناهم مكانة وجعل لهم نصيبا من الفيء الذي حرموا منه و أنعم على بعضهم بالمناصب المهمة في الجيش والادارة، ولم يكن كل هذا تسلطاً للموالي على العرب. او بما يفسر بان ثورة المختار ثورة للموالي على العرب، لم يكن هناك من هذا شيء على الاطلاق، ولكن المختار اراد ان يتقوى بهم على اعدائه، ويستعين بهم في مهماته، وهو ما حصل، وبهذا المزج المتوازن بين العرب والموالي حصل المختار على رصيد شعبي متزايد فريد لم يحصل عليه زعيم قبله، وقد شكل له هذا قوة ضاربة يتعضد بها..))[87].

3- الهدف الديني:

وهو لا يقل اهمية في توجيه الكثير من الثورات مؤثرا ومتأثرا، وقد يتمثل جليا في ردود الافعال المصاحبة لظواهر الفساد الاخلاقي والانحراف الديني الذي اصبح حالة ملازمة للحكومات التي توالت على الدولة الاسلامية.

وقد اطلق عليه الدكتور الصغير بـ(ظاهرة الانحلال) المتمثلة بحياة العبث واللهو والمجون[88] فقد كتب في مبحث (الحسين يهيء مناخ الثورة) قائلا: ((وكانت هناك مؤثرات عقائدية كان لها الاثر الفاعل في التطويح بحياة النضال، وتتمثل تلك المؤثرات بضعف الوازع الديني في النفوس، وتضاءل سلطان الهدى على الضمائر فقد ابتعد اغلب الناس عن الدين، والفوا حياة البذخ والترف، وتطلعوا الى مجالس اللهو والمجون، فترى في القصور الملاهي والمعازف وترى في الشباب النزوة والفورة والاستهتار، وفيما بينهما تغيب رؤية النضال وتستبد حياة الرفاه وا لزهو، فيقبل الناس على الدنيا في ملذاتها، ويبتعدون عن الاسلام في تضحياته ومثله العليا))[89].

وهو يرى ان المناخ الديني المتردي كان احد الاسباب المهمة لثورة النفس الزكية، فيقول: (وهناك العامل الديني وهو المهم في الموضوع، فقد خرج العباسيون عن سنن الشريعة وابتعدوا عن شعائر الاسلام جملة وتفصيلا وابتدعوا احكاما ما انزل الله بها سلطانا في القتل والارهاب دون جريمة في الدين وسفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، بالبلد الحرام، وانتزعوا من طبقة الزهاد المرائين طائفة تؤيدهم حقا وباطلا وأشياع اهل البيت في معزل من القيادة والحقوق والعدالة، قد قتلت الرجال صبرا وذهبت الدماء هدرا...)[90].

وقد تعمق الدكتور في ايضاح المناخات المحيطة بالثورة ضد الخليفة الثالث، ثم جعل من المناخ الديني عاملا اساسيا لقيام تلك الثورة ضمن ما اقر به من معطيات، فيكتب:

(ورأى المسلمون ان عثمان قد عطل حدا من حدود الله عندما لم يقتص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب للهرمزان، وكان قد اسلم وقتله بأبيه فيما زعم، ورأوه وقد حمى الحمى لبني امية، ورأوه يستخلف ابناء الطلقاء الامارات الضخمة، وراوه يسرف على نفسه وعلى اسرته من بيت المال، ورأوه يشرد من يشاء ويبعد من يشاء من صحابة

الرسول، ورأوه غير سنة الله في كثير من المواطن، فقد أقبل السعاة بأبل الصدقة فوهبها عثمان لبعض ابناء الحكم بن العاص...) [91].

4- الجانب الاقتصادي

والمثال السابق قد يتعلق بوجه من الوجوه بالجانب الاقتصادي الذي عادة ما يكون مرافقا لمناخات أخرى عاملا مساعدا على قيام الثورة بل ومن اهدافها الاساسية فالمسلمون في معركة بدر (كانوا يترصدون العِير فلا يظفرون بها، ... خرجوا للغنيمة لا للحرب، فصلوا بالحرب لا بالغنيمة وقد ادخر الله لهم النصر والغنيمة)[92]

والأساس الذي قامت عليه ثورة الزهراء (ع) على الخليفة الاول ابو بكر هو حقوقها الاقتصادية والمالية، من منعها فدك وحرمانها ميراثها الشرعي من ابيها رسول الله (ص) وسهم ذوي القربى، كما تناول ذلك الدكتور الصغير في مبحث (ظلامة الزهراء في انعطاف تأريخي)[93].

وكان الاستهتار الاقتصادي في عصر معاوية سببا لنقمة المجتمع على دولته، والذي أدى الى معارضة الكثير من الصلحاء الذين قتلهم معاوية امثال حجر بن عدي ورشيد الهجري وأوفى بن حصن وجويرية بن مسهر العبدي وعبد الله بن يحيى الحضرمي وجماعته، وغيرهم[94]

يقول الدكتور الصغير:

(ان معاوية قد اطلق العنان لنفسه في اغتصاب اموال الرعية فاعطى من شاء ومنع من شاء، تبعا لرغبات سياسية دقيقة، ونزولا عند هوى جامح وشح متجع، فقد بنى القصور الفارهة تجلب لها المعازف والقيان والجواري، وقد اولم المآدب الفخمة تتستطاب بها الالوان، وقد اغدق على وعاظ السلاطين والفقهاء الرسميين ممن ابتدعوا له فتاوى الظلال، وقد اتخم الكذبة من الرواة والمنتحلين ممن سيروا النصوص الباطلة بالمال الحرام حتى لقد استشرى به هذا الداء الوبيل وابتدع في الاسلام ما لم يكن في هذا الاتجاه وابتكر ما لا عهد للمسلمين به من ذي قبل)[95]

ومثال اجتماع المناخات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في الموسوعة الحضارية، ما قاله الدكتور وهو يمهد للحديث عن بعض الثورات في العصر العباسي:

((فأنى تلفت رأيت مظاهر الابتعاد عن الاسلام وطمس آثار شريعة الرسول الاعظم، واعادة الخلافة ملكا عقيما، ومسخ المبادئ الاخلاقية،و تفجر المناخ الاجتماعي بثورة عارمة من العبث والمجون واباحة الخمور ، ومنع الناس من حقوقهم في بيت المال، واستباحة ذمم الاولياء، واستطالة وعاظ السلاطين، وكبت الحريات العامة،و اشغال الناس بالبعوث في جبهات القتال، وتعطيل القرآن واطفاء السنن،و جعل الخراج دولا بين الظلمة وأعوان الظلمة وتسخير الناس خدما وخولا في مرافق الدولة ومصالح الطغاة، كل اولئك الفقرات الضخمة كانت عوامل استياء منتشر لطبقات شعبية ودينية من المجتمع))[96]

ثالثا: التأريخ لحياة المجتمع الاسلامي في عصور الائمة:

يرى بعض المفكرين: (ان تاريخ أي مجتمع انساني هو في الحقيقة تاريخ حركته في نطاق العقيدة الموجهة له، وهو في الوقت ذاته تاريخ العقيدة التي املت على المجتمع صياغة حياته بهذا الاسلوب المعين، وذلك بمقدار تجاوب المجتمع مع عقيدته وتفاعله معها)[97]

وبناءا على ذلك الدور المهم وتلك الاهمية الاستثنائية لدور المجتمع في بناء التاريخ وصناعته من خلال العقيدة، قدم لنا الدكتور الصغير ضمن موسوعته مجموعة من البحوث الاجتماعية التي ترتبط بشكل او بآخر في تسيير عجلة التاريخ، وترسم ملامحه من خلال اثارها في حركته العامة التي نجح في توظيفها منهجيا لايضاح العديد من الاحداث والوقائع، واثبت من خلال هذه البحوث ان لتصوير واقع المجتمع الاسلامي اثر لا يستهان به في التأثير والتأثر في صياغة الاحداث السياسية.

درس الصغير ظواهر العدل الاجتماعي عند الامام علي (ع) ووجد انها قلبت الموازين واثرت بشكل ملفت في تغيير النفوس والافكار والمبادئ[98].

وبحث في طبيعة المجتمع الكوفي من خلال تعامله مع قضية الامام الحسن (ع) وقد لنا تصورا واضحا... فيقول: (ارتسمت في الافق السياسي تناقضات المجتمع الكوفي مطمعا وانتهازية ونفاقا فهؤلاء القادة في رشاوى معاوية يتهافتون عليه، وأولاد الزعماء في وعود الولاية يلتجأون اليه ، وتلكم القبائل تنفض ما على دثارها ما تبقى من شمم واباء، وهاتيك الرعاع في فوضى من الولاء المتقلب واولاء الخوارج يشيعون الفتنة ويعون الحق ولا يدركونه، وثمة جيل من الاخلاط من المرتابين المنافقين لا ايمان لهم بالمثل العليا، واولئك الثقات المختارون وهم القلة النادرة على تعاقب التاريخ بين هذا المزيج العجيب في حيرة من الامر ودوامة من التفكير وتلك الصفوة من الهداة لا امر لها يطاع ولا رأي يتبع وهذا الجيش المقاتل يستلم للدعة والتخاذل)[99].

ولعمري انه لتصوير واقعي حقيقي مجسم لوصف مجتمع املى بطبيعته المتناقضة ما سوف يحصل من الصلح ونتائجه سلبا وايجابا.

ومن ثم فقد حلل الدكتور الظواهر الاجتماعية بارزة الاثر في ثورة الامام الحسين (ع) ووصفها بانها متعددة بتعدد المجتمعات الانسانية وهي مرافقة لحياة الناس رغم مصرع الحسين وآل بيته واصحابه..

وقال: (ويبرز دور هذه الظواهر في تفاعلها النفسي مع مسيرة الثورة، ويتجلى اثرها في كونها عفوية الايماء، ولا قسر معها ولا اكراه، فهي تنبع من صميم النفس الانسانية متجاوبة الاصداء في حياته الاجتماعية، بعيدة عن العسر والتكلف...)[100].

وذكر بهذا الصدد (ظاهرة الحسرة والندم)التي شكلت رد فعل عاطفي عنيف لدى محبي الامام الحسين (ع) فيقول (... ولقد رايت فيما مضى صدق عاطفة التوابين وندم زعمائهم وحسرة اشرافهم، وقد عبروا عن ذلك في اكثر من موضع قولي ومن موقع حربي، حتى قتلوا تكفيرا عن الذنب وتعبيرا عن الندم)[101] فكان مقتل التوابين على اثر تنامي ظاهرة اجتماعية في النفوس والعقيدة ادت الى صناعة التاريخ البطولي.

والظاهرة الاخرى التي ناقشها الدكتور هي (الشعر العربي في رثاء الحسين ووصفها بانها جديرة بالبحث الموضوعي وهي ذات اثر اجتماعي سيرته ثورة الامام الحسين طيلة عصور الادب العربي. وهي تتمثل بهذا السيل الجارف من الشعر الذي

رثي به الحسين وآله واصحابه منذ استشهادهم على ثرى الطف حتى اليوم)[102] ويوضح الدكتور اثر هذه الظاهرة الاجتماعية في مواقف الطغاة، فيقول:

(لقدكان مجرد ذكر الحسين عليه السلام بعد مجزرة الطف، يعد بملحظ سياسي تحديا سافرا لنظام الحكم، ودعوة للأحاطة به، فهو يرعب الطغاة ويدخل الذعر بين صفوف اوليائه، بل هو يقيمهم ويقعدهم منذ مصرعه حتى العصر الحاضر)[103].

ويتحدث الدكتور عن (ظاهرة زيارة الامام الحسين) ويصفها بانها (من اكثر الظواهر الاجتماعية شيوعا واعمقها رسوخا في مواكبة الثورة) متعرضا لاثارها المعنوية والدينية والسياسية.

وضمن بحثه الاجتماعي، تحدث عن الاثار الاجتماعية لحياة العبث والاسراف التي طغت على المجتمع ابان تسلط الامويين وحكم العباسيين[104].

واولى عناية فائقة ضمن دراسة دقيقة لديباجة حقوق الانسان عند الامام زين العابدين وهي تمثل دور الامام في ارساء دعائم حقوق الانسان في ضوء تعليمات القرآن الكريم، ومن خلال معطيات الدين الاسلامي الحنيف في رسالته الفريدة (رسالة الحقوق)[105].

وفي ملحظ جدير بالاشارة، نجد استاذنا العلامة يتحثد عن نشأة المعصومين عليهم السلام على اساس الواقع الاجتماعي، وليس بمعزل عنه ليستجلي من ذلك تميز الامام في غمار الحياة الاجتماعية لا بوصفه قضية قائمة بذاتها نائية عن الواقع المحيط بها، فهو يقول مثلا وهو يترجم لنشأة الامام الباقر (ع):

((واستشرف البنية الاجتماعية ارضية وكيانا ومؤسسات، فرأى التميز العنصري يضرب بجرانه في الطبقات الدنيا ولحظ التفاوت الطبقي ينهش في جسد الأمة))[106] الى ان يقول (والامام عليه السلام من اعباء هذا التناقض العجيب وذلك المناخ المضطرب يكد ويكدح لاسترجاع تراث الامة الضائع ويعمل ويخطط من اجل ايقاظ ضمير الشعب المتخدر...)[107].

رابعا: التاريخ لظواهر الاقتصاد الاسلامي:

ولم يكن الوصف الاقتصادي الدقيق غائبا عن منهجية الدكتور الصغير في التأليف فقد حفلت كل الفترات التي ارخ لها سياسيا واجتماعيا بوصف اقتصادي يصاحبها حيثما حلت لتكتمل صورة الحدث باجلى مظاهره، وليقدم صورة تحاكي الواقع، وثمة اشارات كثيرة ومتعددة بعض الاحيان الى الواقع المتردي وحالة الفقر المدقع التي مني بها المجتمع في فترات الامويين والعباسيين، وثمة تأكيد على تلك الظاهرة كونها تمثل حالة اللاتوازن بين ايرادات الدولة وبين مصروفاتها تجاه حقوق المواطن المسلم، موضحا من خلال ذلك دور ائمة اهل البيت في مواجهة ذلك الواقع الاقتصادي المر، فجاء بحثه في موقف الامام الباقر عليه السلام من العملة العربية والنقد الاسلامي، وتصديه لانقاذ الدولة العربية الاسلامية ايام عبد الملك بن مروان الاموي، وما في ذلك التصدي من دلالة حضارية كبيرة[108].

ومن خلال دراسته لتحليلية الرسالة حقوق الانسان (للامام زين العابدين (ع)) اوضح الكثير من الحيثيات الخاصة بالاسس الاقتصادية التي يفترض ان تسود المجتمع

الاسلامي واصفا اياها بانها (خيال يداعب المشاعر والافكار) متمنيا ان تتحقق يوما في ظل حياة رغيدة فارهة[109].

وقد تحدث في بعض الفصول مشيرا الى قضية تسخير بيت المال للمصالح الخاصة وحرمان اهل الحق من حقوقهم، فيقول في بعضها: ((والاغرب من هذا ان يمعن معاوية بامتصاص عيون الاموال واصطفاء كريم المعادن لتنفيذ الخطط السياسية في انتعاش القبائل الموالية له في الشام والترفيه عن الاسباط والاصهار وبني امية، والسيطرة على موارد الدولة في اعز ما تملك، وتجريد المضطهدين من كل حق يجوز لهم...))[110].

وهكذا استطاع ان يضع القارئ الكريم امام صورة سياسية واجتماعية واقتصادية في ان واحد وبألوانها الحقيقية بغية خلق الاجواء التاريخية المتكاملة التي تساعد في فهم المؤرخ المفسر لظواهر التاريخ الاسلامي وكذا الباحث السياسي والاجتماعي والاقتصادي في تحليلاته ودراساته لظواهر تلك الفترة من تاريخ الدولة الاسلامية.

الخلاصة

امتازت موسوعة اهل البيت الحضارية التي دونها الدكتور محمد حسين علي الصغير بما يأتي:

1. انها تلمست السمات الحضارية من ظواهر التاريخ الاسلامي من خلال دراستها لسيرة اهل البيت دراسة ابتعدت عن التقليد في الطرح، ونأت عن محاكاة السابقين في كتاباتهم لتلك السيرة بما يمكن اعتباره تجديدا في مجال الكتابة التاريخية المعاصرة.
2. انها اعتمدت الطابع البلاغي والفني في التعبير عن الظواهر والوقائع والاحداث والشخصيات، دون الاخلال بمصداقياتها او الابتعاد عن واقعها الاصيل من خلال التهويل والمبالغة، وانما رسمت في مخيلة القارئ صورة فنية معبرة عن الواقع باجلى مظاهره وانصع حقائقه، مبتعدة عن لغة التواريخ المتسمة بالجفاف والرسمية في التعبير.
3. يمكن وصفها بأنها دراسة تحليلية دلالية بامتياز من خلال ما قدمته لنا من استجلاء قيم وتحقيق علمي رصين في كثير من المفاهيم السائدة والأفكار الراسخة، حتى عادت مؤسسة لمنهج جديد في البحث التاريخي الدلالي، لم يألفه السابقون في دراساتهم ولا عرفه المعاصرون في موسوعاتهم.
4. انها قدمت للباحثين منهجا فريدا في أساليب النقد العلمي من خلال ما ناقشه الدكتور الصغير من طروحات وآراء القدماء والمتأخرين والمعاصرين، فضلا عن طرق المداخلة، والاستدراك، وآداب الاقتباس والاختصار غير المخل بالنصوص الطويلة، وغير المضر بأفكار الآخرين وآرائهم.
5. إنها عالجت الفكر الثوري الإسلامي وأوضحت ملامح هذا الفكر وعمق التجربة الثورية في الإسلام، من خلال دراستها للمناخات والظروف والمستلزمات، المحيطة بكل الثورات والانتفاضات التي نهضت باعباء الحفاظ على المسار الاسلامي من الانحراف والتلاشي او الضعف.
6. ولم تبخل هذه الدراسة الجادة، وقد تبنت الطابع الحضاري للتأريخ:

ان تقدم عرضا وافيا عن المسارين الاجتماعي والاقتصادي اللذين رافقا جميع الاحداث والوقائع بشكل لم يلتفت الى اهميته اكثر الذين حاولوا سابقا كتابة التاريخ السياسي والفكري للأمة العربية والاسلامية.

الباحث
د. حسين سامي شير علي
2007/12/15

مصادر البحث

1- د. علي جواد الطاهر، منهج البحث الادبي.
2- د. احمد بدر، اصول البحث العلمي.
3- محمد باقر الصدر (السيد الشهيد قده)، اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف.
4- مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون.
5- د. فيصل السامر، ابن الاثير.
6- فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح احمد العلي.
7- د.حسين سامي شير علي(المؤلف)، ابن الاثير ومنهجه في كتابة التاريخ.
8- نفسه(المؤلف)، القواعد المنهجية لنقد متن الحديث.
- الصغير، الدكتور محمد حسين علي الصغير.
9- هكذا رأيتهم.
10- الامام علي (ع)، سيرته وقيادته.
11- الامام الحسن (ع)، رائد التخطيط الرسالي.
12- الامام الحسين (ع)، عملاق الفكر الثوري.
13- الامام زين العابدين (ع)، القائد الداعية الانسان.
14- الامام محمد الباقر(ع)، مجدد الحضارة الانسانية.
15- الامام الصادق، زعيم مدرسة اهل البيت.
16- الامام موسى بن جعفر الكاظم ، ضحية الارهاب السياسي.
17- الامام الجواد (ع)، معجزة السماء في الارض.

([1]) منهج البحث الأدبي: 57+ ظ: احمد بدر، اصول البحث العلمي: 143.
([2]) وهي رسالة ماجستير للدكتورة سعاد الدفتري.
([3]) للدكتور حاتم جاسم عزيز السعدي/ كلية التربية- ابن رشد/ جامعة بغداد.
([4]) للاستزادة في ايضاح هذه الفكرة يمكن مراجعة كتاب (أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف) للشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه.
([5]) ظ: د. الصغير، مقدمة هكذا رأيتهم : 6- 7.
([6]) ظ: مصطفى شاكر – التاريخ العربي والمؤرخون- : 2/ 104 + د.فيصل السامر، ابن الاثير: 93.
([7]) السامر ، المصدر السابق: 151.
([8]) علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح احمد العلي: 245.
([9]) الباحث، ابن الاثير ومنهجه في كتابة التاريخ، رسالة ماجستير: 27.
([10]) هكذا رأيتهم: 65
([11]) د. الصغير، هكذا رأيتهم: 65.
([12]) د. الصغير – الامام الحسين : 253.
([13])د. الصغير، الامام الصادق: 107.
([14])د. الصغير ، الامام الباقر: 88.
([15]) ظ: العقد الفريد 6/27+61.
([16]) الصغير: الامام محمد الباقر : 62.
([17]) ظ: د. الصغير. الامام زيد العابدين: 37- 48.
([18]) ظ: المفيد، الارشاد: 182.
([19]) د. الصغير، الامام الحسن
([20]) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 8/578+8/656.
([21])د. الصغير: الامام محمد الجواد: 71.
([22]) الطبري، التاريخ: المقدمة: 8.
([23]) الدولة العربية وسقوطها: ترجمة يوسف العش: 2.
([24]) د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 76-77.
([25]) د. الصغير، الامام علي وسيرته وقيادته : 76-77.
([26])د. الصغير: الامام محمد الباقر: 90.
([27]) د. الصغير: الامام موسى بن جعفر، 143.
([28]) مقدمة ابن خلدون : 6.
([29]) د. الصغير، الامام الحسين: 164.

(30) د. الصغير، الامام الباقر: 189.
(31) د. الصغير، الامام زين العابدين: 243.
(32) د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 237-238.
(33) د. الصغير، الامام الحسين : 231.
(34) د. الصغير، الامام الحسن: 186.
(35)د. الصغير، الامام محمد الجواد: 135.
(36) د. الصغير، الامام موسى بن جعفر : 180- 181.
(37) د. الصغير، الامام الحسين: 230.
(38) د. الصغير، الامام علي (ع): 169- 170.
(39) د. الصغير، الامام موسى بن جعفر: 140.
(40) د. الصغير، الامام الحسين: 61.
(41) د. الصغير، الامام علي: 153.
(42) محمد باقر الصدر، اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف: 79
(43) المصدر السابق: 80-81.
(44) احمد أمين، فجر الاسلام: 276.
(45) د. الصغير: الامام جعفر الصادق: 150- 151.
(46) د.الصغير: الامام الحسن : 77 والنص في الفتنة الكبرى: 178/2.
(47)د. الصغير: المصدر السابق: 91-92 والنص في الفتنة الكبرى : 179/2.
(48)د. الصغير: الامام الحسن: 107.
(49) محمد جواد فضل الله: الامام الصادق: 93.
(50) د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 246.
(51) باقر شريف القرشي، حياة الامام الجواد: 238.
(52) د. الصغير، الامام الجواد: 80.
(53) ظ: الدكتور الصغير، الامام الصادق: 87-88، 198-199.
(54) نفسه: 215.
(55) ظ:د. الصغير، الامام الحسن: 34-35.
(56) ظ: د. الصغير، الامام زين العابدين: 205-212.
(57) ظ: د. الصغير: الامام محمد الباقر: 275-289+ الامام الصادق: 316-323.
(58) ظ: نفسه: 290- 312.
(59) ظ: نفسه: 313-332+ الامام الصادق: 298-308.
(60) ظ: نفسه: 333-344.
(61) ظ: نفسه: 345-362+ الامام موسى بن جعفر: 63-84.
(62) نفسه: 363- 381.
(63) ظ: د. الصغير، الامام محمد الباقر: 215-230+ الامام الصادق: 235-342.
(64) ظ: مثلا: الامام محمد الجواد: 159- 172.
(65)ظ: مثلا: الامام محمد الجواد: 159- 172.
(66) ظ: للباحث: القواعد المنهجية لنقد متن الحديث. المطبوع حديثا (الفصل الاخير).
(67) ظ: د. الصغير، الامام محمد الباقر: 231-247+ الامام الصادق: 358-362.
(68) ظ: نفسه: 248- 260.
(69) ظ: د. الصغير، الامام الصادق: 363.
(70) ظ: د. الصغير، الامام الباقر: 261-271.
(71) ظ: الامام الجواد : 211-229.
(72) ظ: الامام الصادق: 133-165.
(73) ظ: الامام الصادق: 133-165.
(74) ظ: الامام موسى بن جعفر: 105-136.
(75) ظ الامام محمد الجواد: 232-247.
(76) ظ: الامام الصادق: 367-381.
(77) ظ: نفسه: 382-393.
(78) ظ: نفسه: 394- 403.
(79) ظ: نفسه: 404- 408.
(80) ظ: د. الصغير، الامام زين العابدين: 69- 70.
(81) ظ: الامام الباقر: 24+ 35.
(82) ظ: الامام الحسين: المقدمة:5.
(83) د. الصغير: الامام موسى بن جعفر: 177-185.
(84) د. الصغير: الامام الصادق : 193.
(85) ظ: د. الصغير: الامام زين العابدين: 51-60.
(86) ظ: د. الصغير: الامام الحسن: 99- 107.
(87) ظ: د. الصغير: الامام الحسين: 301.

(88) ظ:د. الصغير: الامام الباقر: 51.
(89) ظ: د. الصغير: الامام الحسن : 211.
([90]) ظ: د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 221.
([91]) ظ: الصغير ، الامام علي: 210.
([92]) ظ: د. المفيد: الامام الحسن : 147 وما بعدها.
([93]) ظ: د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 221.
([94]) ظ: د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 221.
([95]) د. الصغير، الامام موسى بن جعفر: 177- 178.
([96]) ظ: د. الصغير، الامام جعفر الصادق: 221.
([97]) الشهيد محمد باقر الصدر: اهل البيت: 21.
([98]) ظ: الصغير: الامام علي : 317- 328.
(99) د. الصغير: الامام الحسن: 99.
(100) د. الصغير، الامام الحسين: 343.
(101) نفسه: 344.
(102) نفسه: 349.
(103) نفسه: 350.
(104) ظ: د. الصغير: الامام زين العابدين: 51- 61.
(105) ظ: نفسه: 237.
(106) د. الصغير، الامام الباقر: 14.
(107) نفسه: 15.
(108) ظ: الصغير، الامام الباقر: 133-137.
(109) ظ: د. الصغير، الامام زين العابدين: 295.
(110) د. الصغير: الامام الحسن: 133.